درر التصوف الإسلامي

الدكتور: علي كرزازي

بسم الله الرحمان الرحيم

****

" إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "

{سورة الأحزاب }:آية35

مقدمة:

بسم الله الرحمان الرحيم والصلاة والسلام على خير الورى ونبي الهدى، سيّدنا محمد المختار وعلى آل بيته وعثرته الأطهار، وصحابته الميامين الأخيار، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،

فلقد قادني اهتمامي الأكاديمي بالتصوف إلى الانغمار في لجة هذا البحر اللجب الزاخر بالقيم الأخلاقية والرؤى الإنسانية والنفحات الإيمانية، ومن ثمة نشأت هذه الصلة الحميمة بين ذات قارئة عاشقة، وبين رموز هذا الرافد الحي من رموز هويتنا وثقافتنا العربية والإسلامية. وفي خضم هذه العلاقة المائزة أحببت أن أنقل لوثة عشقي إلى قراء آخرين سيتيح لهم هذا العمل المتواضع، أن يكتشفوا ابرز أساطين التصوف الإسلامي، الذين صاغوا من خلال تجاربهم الحياتية والإبداعية على حد سواء، مقاربة أو مقاربات مخصوصة للذات والوجود والإنسان، فكان أن شادوا نظرية معرفية تنماز عن باقي النظريات الأخرى باتساع أفقها واصطناعها للقلب كأداة للمعرفة، ومن هنا جاء اهتمام الصوفية الزائد بالروح على حساب المادة، فانهمّوا بتزكية النفس والسمو به نحو الحضرة الإلهية، من خلال آلية الذكر وتجربة المجاهدة، فأسسوا من خلال ذلك منهجهم العقدي ومنطلقهم المعرفي في فهم الدين والوجود والعالم.

لقد حرص الصوفيون أيما حرص على الاتصال بالذات الإلهية ناشدين التحقق بكمالاتها، وقد دلّ على ذلك استغراقهم في تجربة الحب والجمال الإلهيين، ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب الصوفيين عانوا من التهميش والإقصاء والتضييق عليهم وكذا محاربة أفكارهم، لدرجة أن بعضهم دفع حياته ثمنا للدفاع عن رؤيته،

وقد تم ذلك في إطار سياق تاريخي مخصوص ، انماز بالأساس بالصراع بين الفقهاء والعامة وأهل السلطة من جهة، وبين هؤلاء المتصوفة الذين أسسوا – في غالبيتهم العظمى- تجاربهم على أساس مكين من التوحيد والاحتكام للقرآن والسنة، يقول الإمام القشيري:

" اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة من التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل...واحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد" (الرسالة القشيرية ص:27-29).

لا مراء في كون التصوف كسلوك أخلاقي وقيمة معرفية يفتح أفاقا رحبة للحب والتسامح والتساكن والسلم والسلام، بما يثوي في جوهره من قيم إنسانية تؤاخي بين الإنسان وأخيه الإنسان بغض النظر على اختلاف الأديان والأجناس والأعراق، وتنسج خيوط علاقة عشق إلهي له الفرادة والاستثناء، يقول أبو طالب المكي " إن المحبّة أكمل مقامات العارفين ... وهي إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين " ويقول " فالمحبة تكون هبة من الله تعالى لأصفيائه من الأولياء ، وهي أكمل أنواع المقامات التي يحققها المؤمن " و " كل مؤمن بالله فهو محب لله ، ولكن محبته على قدر إيمانه ، وكشف مشاهدته ، وتجلي المحبوب له على وصف أوصافه" (كتاب: قوت القلوب).

ضمن هذا السياق الموسع يندرج هذا المجهود المتواضع الذي استحضرت من خلاله ثلاثين شخصية من شخصيات التصوف الإسلامي قصد التعريف بهم، و الوقوف على أهم المحطات التي طبعت تجاربهم الحياتية والإبداعية، وكذا

مقاربة رؤاهم الاستثنائية عن الخلق والحق، عبر لغتهم الشفيفة وخيالهم المبدع ومشاعرهم المترعة بالحب الإلهي، تلك المشاعر التي تروم أولا وأخيرا العودة إلى الأصول والينابيع الروحية للإنسان ، وهي سبيلنا للوقوف في وجه هذا المد الجارف لعالم المادة والتشيئ وقيم العولمة المتوحشة.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتقدم بجزيل شكري وعظيم امتناني لدار سيبويه للطباعة والنشر، على ما تبذله من جهود جبارة تستهدف خدمة الإنسان والمساهمة في تثقيفه في وطننا العربي ككل.

" رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ "(سورة النمل:آية19)

صدق الله العظيم

الدكتور:علي كرزازي/ المغرب

الدرة الأولى:

إبراهيم بن أدهم... أول المحبين

" هجرت الخلق طرا في هواك "

لقب بأول المحبين وسلطان العاشقين ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور المتوفى سنة 162 أو 163 للهجرة في القرن 2هـ حسب رواية ابن عساكر، واحد من علماء أهل السنة والجماعة وعلم من أعلام التصوف السني ، نشأ في بلخ بأفغانستان وعاش فيها عيشة مترفة الى أن انتشله هاتف غيبي من حياة اللهو والترف والصيد إذ هتف به: «**يا إبراهيم ما لذا خُلقت ! ولا بذا أمرت !**»، فانصاع لهذا الهاتف وعاهد الله قائلا : «**والله لا عصيت الله بعد يومي ذا ما عصمني ربي** » ، ومهما يكن من صحة هذه الرواية ، فإن الثابت تاريخيا أن إبراهيم بن الأدهم انسحب من لذاذات العالم الدنيوي ليتفرغ للعبادة والذكر ابتغاء مرضاة الله تعالى.التحق بمكة للحج وهناك صحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض.

عرف بزهده في كل متع الحياة الدنيا ، سواء تعلق الأمر بالأكل والشراب أو الملبس والمسكن ، إذ يروى أنه قيل له ذات مرة : " إن اللحم قد غلا سعره يا إبراهيم " فأجاب قائلا : " أرخصوه " قالوا: " كيف ذلك ؟" قال: " لا تشتروه " وأنشد في ذلك:

إذا غلا على شيء تركتُهُ *-* فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

من أقواله الدالة على زهده وتقشفه ما أورده أبو نعيم في "حلية الأولياء": «لو أن العباد علموا حب الله – عزّ وجل- لقلّ مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره، حتى إن منهم قائما وراكعا وساجدا منذ خلق الله تعالى الدنيا ما التفت إلى من على يمينه وشماله، اشتغالا بالله –عزّ وجل- وخدمته" وقوله أيضا:" اطب مطعمك ولا حرج عليك ألا تقوم الليل ولا تصوم النهار" . ومن أدعيته الواردة في (الرسالة القشيرية: للقشيري):" اللهم انقلني من ذل معصيتك الى عز طاعتك ".

أما مفهومه للورع فقد صاغه بأسلوب شائق جاء فيه:" إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك والاشتغال عن عيوبهم بذنبك ، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لربّ جليل، ففكر في ذنبك وتب الى ربّك ينبت الورع في قلبك واقطع الطمع إلا من ربّك ".

من مقام التوبة والاشتغال بالله جاز إبراهيم إلى مقام المحبة ، وهو بحسب المؤرخين أول من لهج (تكلم) بالحب الإلهي وذلك ما تترجمه هذه المناجاة الصادقة ، يقول : «إلهي إنك تعلم أن الجنّة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكير في عظمتك ».

إنمازت سيرة هذا المتصوف الفذ بكثرة الصمت والتأمل ، مع حرصه الشديد على الجهاد في سبيل الله ، كما أنه أعرض عن ثروة أبيه الكبيرة وكذا عن غنائم الحرب وآثر أن يعيش من كدّ يده ، واختص بالعديد من الكرامات من ذلك مثلا "ما روي أن قوما كانوا في سفن فهبت الريح فاضطربت السفن وكادت تغرق، فبكى الناس وكان في القوم إبراهيم بن أدهم ، فقالوا لو سألناه أن يدعو الله ، فدنا منه رجل وقال: يا أبا إسحاق ما ترى ما فيه الناس؟ فرفع رأسه وقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا رحمتك ، فهدأت الريح واستقرت السفن».

مما لاشك فيه أن التصوف عند الجيل الأول من المتصوفة جاء كرد فعل على واقع المجتمع العربي الإسلامي في القرن الثاني للهجرة ، والذي اتسم بغياب الوازع الديني والأخلاقي،وهذا ما نستشفه من سيرة شيخنا إبراهيم ، لننصت لهذا الخبر:

" كان إبراهيم بن أدهم بمشي في البصرة فاجتمع إليه الناس فقالوا : " ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا والله تعالى يقول:"وقال ربكم ادعوني استجب لكم "(سورة غافر :أية:60) فقال : " يا أهل البصرة قد ماتت قلوبكم بعشرة أشياء عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، قرأتم القرآن ولم تعملوا به ، ادعيتم حبّ الرسول صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته ، ادعيتم عداوة الشيطان وأطعتموه ، ادعيتم دخول الجنة ولم تعملوا لها، ادعيتم النجاة من النار

ورميتم فيها أنفسكم ، قلتم الموت حق ولم تستعدوا له ، اشتغلتم بعيوب الناس ولم تشتغلوا بعيوبكم ، دفنتم الأموات ولم تعتبروا ، أكلتم نعمة الله ولم تشكروه عليها" .

زواج الشيخ الزاهد إبراهيم بين جهاد النفس والجهاد في سبيل الله ، وقيل إنه توفي وهو قابض على قوسه يريد الرمي بها في حملة بحرية على البيزنطيين . دفن على الساحل السوري بمدينة جبلة وأصبح قبره مزارًا يحاذي مسجدا سميّ بجامع السلطان إبراهيم وهو أهم مساجد جبلة في الوقت الراهن.تغمد الله شيخنا الجليل بواسع رحمته.

الدرة الثانية:

رابعة العدوية... شهيدة العشق الإلهي

" حبّ الخالق شغلني عن حب المخلوقين"

هي رابعة بنت إسماعيل العدوي ، زاهدة ومتصوفة عراقية ولدت سنة 100هـ في مدينة البصرة لأب ناسك فقير، كانت رابعة أخواتها البنات وهو سبب تسميتها برابعة.

رائدة من رواد مذهب الحب الإلهي، عانت في طفولتها من تجربة اليتم المبكر إذ فقدت أباها ثم أمها تباعا ، لتغوص في عالم الفقر والحرمان، ثم اصطلت بعد ذلك بنار التشرد والضياع ، إذ يروى أنه إبان سنوات القحط والمجاعة التي عرفتها البصرة، تعرضت رابعة وهي طفلة صغيرة للاختطاف من قبل اللصوص وقطاع الطرق لتُباع بدراهم معدودات لأحد التجار القساة من آل عتيق.

وتبقى شخصية رابعة من أشهر الشخصيات الصوفية التي نسجت من حولها الأساطير والحكايات التي يصعب في بعض الأحيان تصديقها، حتى أن السينما الحديثة هي الأخرى انخرطت في هذا المنحى من خلال تقديمها لرابعة كفتاة لعوب تتمرغ في حياة اللهو والمجون ظهرا لبطن، قبل أن تلوذ بالتوبة وطاعة الله والاشتغال بعبادته.

وبالرجوع إلى التنشئة الاجتماعية لرابعة نجد أنها عاشت في وسط إسلامي متشبع بالثقافة الدينية ، يدل على ذلك أبوها الذي كان ينعت بالعابد، وحفظها للقرآن الكريم وقراءتها ومدارستها للحديث وحرصها على تأدية الصلاة وهي بعد طفلة صغيرة ، ينضاف إلى ذلك زهدها في ملذات الحياة ورغبتها وانصرافها عن الزواج طيلة حياتها بالرغم من تقدم أفاضل الرجال لخطبتها.

إن من الدارسين من يكرس الصورة النمطية التي نسجت حول رابعة كفتاة لاهية ستتحول إلى عابدة متصوفة، كما هو الشأن بالنسبة للدكتور حُسين مروة الذي يختزل

تجربتها في قوله «قصة مأساة مزدوجة لعب الفقر الوحشي والحب المسحوق دورين متداخلين ، انتهيا برابعة إلى الكهف الداخلي العميق في ذاتها ، وخلّف لها العشق الإلهي تجد به عوضا وهميا عن الحرمان الذي افترس شبابها » (النزعات المادية في الفلسفة العربية).

وفي المقابل وجدنا دارسين آخرين وعلى رأسهم الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي لم يرتض لرابعة تلك الصورة المزيفة التي أسبغتها عليها السينما، لاعتبارات شتى لعل أهمها: عامل الوراثة – عامل البيئة – عامل الاستعداد الشخصي وهي عوامل – برأيه- تنأى برابعة عن أن ترتمي في حمأة الفساد والرذيلة ، ناهيك عن عزوفها المطلق عن الزواج.

ومهما يكن من أمر فالذي يهمنا أكثر هو أن رابعة –على خلاف غيرها من الزهاد والنساك- تفردت بسمة أساسية وهي الانغمار في لجة حب مطلق تغدو معه المحبة لذة في المخلوق واستهلاكا في الخالق بتعبير الكلاباذي، حبّ ملك عليها مجامعها فوهبته نفسها كلها روحا وجسدا، لننصت إليها وهي تناجي حبيبها الأوحد:

عرفت الهوى مذ عرفت هواكا ** وأغلقت قلبي عمن سواكا
أحبك حبين حبّ الهوى ** وحبًّا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ** فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ** فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ** ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

أي طاقة روحية وأي وهج وجداني يسكن هذه العارفة التي اكتوت بنار الحب الإلهي واستمرأت عذاباته ، لتشد الرحال نحو الملأ الأعلى في تجربة روحية ووجدانية عز نظيرها ؟ تقول رابعة: «محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن إلى محبوبه ».وتقول كذلك مخاطبة خالقها:

" سيدي...بك تقرّب المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سبّحت الحيتان في البحار الزاخرات،ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات،أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدوار والبحر الزخار ، وكل شيء عندك بمقدار لأنك الله العلي القهار".ومن أشهر مناجياتها قولها:

وزادي قليل ما أراه مبلغي ** أللزاد أبكي أم لطول مسافتي

أتحرقني النار يا غاية المنى ** فأين رجائي فيك أين مخافتي

ومثلما انعقد الخلاف حول بعض المعطيات المتعلقة بسيرة هذه الصوفية المتميزة كذلك انصب التشكيك في الكثير مما نسب إليها من أقوال وأشعار.ومما لا مراء فيه أن هذه العابدة الزاهدة نذرت نفسها لعبادة ربها وللفناء في حبّه، وهو ما تثمنه صديقتها " عبدة " بقولها:" كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهي فزعة:" يا نفس كم تنامين ! والى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور"، فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت".

في سنة 180 للهجرة انطفأت شمعة أم الخير رابعة وهي في الثمانين من عمرها ، وفي سنة 1963 إبان عهد جمال عبد الناصر، بني في مصر بمدينة نصر مسجد حمل اسم "رابعة العدوية "، وأطلق على الميدان المقابل للمسجد اسم ميدان رابعة العدوية. رحم الله رابعة وأثابها ونفّعنا ببركاتها.

الدرة الثالثة :

شقيق البلخي...الامام الزاهد

" إن وجدنا آثرنا، وإن لم نجد شكرنا "

هو أبو علي الأزدي شقيق بن إبراهيم من بلخ أحد أشهر مشايخ خراسان ، تتلمذ على يد إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريقة مثلما أفاد من غيره من علماء عصره كعباد بن كثير وكثير بن عبد الله الأبلي. ومن أبرز تلامذته حاتم بن الأصم ، الذي عمّق بمعيته فلسفة الزهد والنقاء الروحي وقصتهما عن المسائل الثمانية مشهورة .

يرجع سبب توبته إلى أنه كان من أبناء الأغنياء الموسرين فخرج للتجارة في أرض الترك وهو شاب فدخل بيتاً للأصنام، فرأى خادماً فيه قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثياباً أُرجوانية فقال شقيق للخادم " إنَّ لك صانعاً حيًّا ، عالماً ، قادراً ، فاعبده.. ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع " فقال له الخادم : " إن كان كما تقول ، فهو قادر على أَن يرزقك ببلدك ، فلم تعنَّيت إلى هاهنا للتجارة ؟ " فانتبه شقيق ..وانخرط في طريق الزهد.

عرف شقيق بكثرة النفقة في سبيل الله ، وعد من كبار المجاهدين المنافحين عن الإسلام، وبحسب كتب التاريخ الصوفي يعتبر هذا الصفي العارف أول من تكلم في علم الأحوال (عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية)، وله رسالة في آداب العبادات حدد فيها منازل السالكين في درب العروج إلى الله وسمّاها ب "منازل أهل الصدق". ومقام الصدق هذا كان هو المعيار الذي استند إليه شقيق في التمييز بين الناس إذ قسمهم إلى فئتين : فئة أهل الرياء النفاق وفئة أهل الصدق ، وإذا كانت كل منهما تدعي التدين فإن الأولى كاذبة والأخرى صادقة ، وعليه تتحدد منازل أهل الصدق عنده في أربعة منازل هي: الزهد، الخوف، الشوق إلى الجنة ومحبة الله. وهذه الأخيرة (محبة الله) هي أشرف المنازل وأرفعها وعنها يقول شقيق :

«فإذا صيّره (يقصد المؤمن الصادق التقي) الله إلى هذه المنزلة كان في قلبه نور المحبة، فغلب عليه من غير أن يكون فارقه نور الزهد والخوف والشوق إلى الجنة ».

عديدة هي الحكايات التي تعكس حقيقة التصوف الزهدي لدى شقيق ، من ذلك مثلا وصيته لهارون الشريد إذ يقول: «[..] إن لله دارا تعرف بجهنم وإنه جعلك بواب تلك الدار وأعطاك ثلاثة أشياء لترد عباده عنها : أعطاك بين المال والسوط والسيف وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة ، فمن جاءك محتاجا إلى طعام حلال فلا تمنعه حقه في بين المال حتى لا يسرق ويقتل، ومن خالف أمر دينه تعالى وخرج على حدود الله فأدبه بالسوط ، ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولي المقتول ، فإن لم تفعل ما أمرك الله – تعالى- فأنت تكون الغريم لأهل النار والمتقدم إلى أهل البوار.فقال له الرشيد : زدنا فقال له شقيق: يا أمير المؤمنين مثلك مثل معين الماء ومثل سائر العلماء كمثل السواقي ، وإذا كان المعين كدرا لا ينفع صفاء السواقي ، فبكى هارون الرشيد من قوله وأمر له بمال ، أبى أن يأخذه وتركه وانصرف ».

ما نفيده من هذه الحكاية هو أن الصوفي لم يكن انعزاليا أو سلبيا – كما يظن البعض - بل كان يصدر عن رؤية مخصوصة مستمدة من ذلك النبع الصافي للشرع الإسلامي، الذي رسم حدود العلائق بين الإنسان وذاته وبين الإنسان وربه ، كما بيّن علاقة الحاكم والمحكوم والساسة والرعية ذلك ما يؤكد عليه شقيق في أكثر من مناسبة، يقول «لو أن رجلا عاش مائتي سنة لا يعرف هذه الأربعة لم ينج: معرفة الله ، ومعرفة النفس، ومعرفة أمر الله ونهيه، ومعرفة عدو الله وعدو النفس ».

عديدة هي مناقب شقيق البلخي التي ترسم صورة سنيّة لرجل تقيّ آثر أن يكون الله سنده ومعتمده في المبتدى والمنتهى و من أشهر أقواله رضي الله عنه:

- " التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله"

- " الثقة بالله هي أن لا تسعى في طمع ، ولا تتكلم في طمع ، ولا ترجو دون الله سواه، ولا تخاف دون الله سواه ، ولا تخشى من شيء سواه ، ولا يحرك من جوارحك شيء دون الله "

اكتمل نسك شقيق بنيله شرف الاستشهاد في سبيل الله، كان ذلك في غزوة كولان سنة 194هـ.رحم الله هذا الصوفي الشهيد وأدخله فسيح الجنان.

الدرة الرابعة:

الفضيل بن عياض... عابد الحرمين

" ارحمني بحبي إياك فليس شيء أحب الي منك "

هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخرساني ، ولد في سمرقند سنة 170هـ ونشأ بأبيورد، أحد أعلام أهل السنة في القرن الثاني للهجرة ، اشتهر بلقب "عابد الحرمين" .كانت توبة الفضيل بن عياض أول خطوة له في درب التصوف والانقطاع عن الدنيا ، إذ روى ابن عساكر بسنده عن الفضل بن موسى: قال: «كان الفضيل بن عياض شاطرا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية ، فينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تاليا يتلو "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ..." (سورة الحديد : آية 16) قال: يا رب قد آن ، فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة فقال بعضهم: نرتحل وقال قوم: حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا ، قال: ففكرت وقلت: أنا أمسي بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إنّي قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام ».(الرسالة القشيرية).

علم الفضيل أن الله لا يعبد بالجهل وأن التوبة وحدها لا تكفي ، لذلك عكف على النهل من حياض العلوم الشرعية فروى عن كبار الشيوخ كالأعمش والثوري ومنصور بن المعتمر وهشام بن حسان وسليمان التميمي وعوف الأعرابي وغيرهم. أما أبرز من روى عنه وتتلمذ على يديه من العلماء ، فنذكر على سبيل المثال : ابن عيينة والشافعي وابن المبارك والحميدي وبشر الحافي ويحيى القطان وقتيبة بن سعيد... وغيرهم.

كدأب جميع المتصوفين اعتمد الفضيل بن عياض الزهد منهجا في السلوك والحياة. قيل له: "ما الزهد؟ قال: القنوع، قيل: ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم، قيل: ما العبادة ؟ قال: أداء الفرائض، قيل ما التواضع ؟ قال: أن تخضع للحق.

وننتخب لكم جملة من أشهر أقواله الدالة على رؤيته الصوفية:

-" لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مرّ بها أن تصيب ثوبه ".

-" عليك بطريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين ، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

-" بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله".

-"عاملوا الله- عز وجل- بالصدق في السر، فان الرفيع من رفعه الله،وإذا أحب الله عبدا أسكن محبته في قلوب العباد ".

- كفى بالله محبا ، وبالقرآن مؤنسا ، وبالموت واعظا ".

فضلا عن الزهد في الدنيا والناي بنفسه عن أصحاب السلطة ، انماز الفضيل بصفة الحزن، والحزن عند أهل الله (الصوفية) هو حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة ، ولذلك قيل: " القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب "، ومما يروى عن إبراهيم بن الأشعث قوله: "ما رأيت أحدًا كان الله في صدره أعظم من الفضيل بن عياض، كان إذا ذُكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه فبكى حتى يرحمه من بحضرته ، وكان دائم الحزن شديد الفكرة».

لما أسلم الفضيل الروح لبارئها بمكة في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة، قال وكيع: « ذهب الحزن اليوم من الأرض » .وتكفي شهادة شريك فيه إذ يقول: « لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانه وإن الفضيل بن عياض حجة لأهل زمانه ».رحم الله شيخ الإسلام الفضيل بن عياض وجازاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

الدرة الخامسة :

ذو النون المصري... صاحب الأحوال والمقامات

" آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء"

رأى النور في أخميم بمصر سنة 180هـ وعاش في القاهرة، هو ثوبان بن إبراهيم يكنى بأبي الفيض ولقبه ذو النون، أحد أساطين التصوف في القرن الثالث للهجرة، عدا عن كونه من المحدثين الفقهاء، إذ روى الحديث عن مالك بن أنس والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة.

ارتحل ذو النون إلى الشام والحجاز (مكة) لاستكمال طلب العلم، لكنه عاد إلى مصر حيث استقر بالجيزة، وعن مسرى رحلاته يقول: «ارتحلت ثلاث رحلات وعدت بثلاثة علوم: أتيت في الرحلة الأولى بعلم يقبله الخاص والعام، وأتيت في الرحلة الثانية بعلم قبله الخاص ولم يقبله العام، وأتيت في الثالثة بعلم لم يأخذ به الخاص ولا العام فبقيت شريدا طريدا وحيدا ». ومن خلال استقراء المسار الصوفي للرجل استنتج الكثير من الدارسين أنه يقصد بالعلم الأول علم التوبة وهو بلا شك علم يتقبله الخاص والعام، و العلم الثاني هو علم التوكل والمعاملة والمحبة يقبله الخاص لا العام ، في حين أن العلم الثالث هو علم الحقيقة الذي لا يدركه علم الخلق ولا عقلهم ، ولذلك هجره الناس وأنكروه عليه حتى انقضت أيام حياته .

اشتهر ذو النون بفك طلاسم الخطوط المصرية الهيروغليفية قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر عام 1789م بألف سنة على الأقل، وقد سبق في ذلك العالم الفرنسي شامبليون، كما اطلع على الفلسفة اليونانية وتأثر بالفلسفة الهرمسية والأفلطونية المحدثة. ومن أشهر مؤلفاته "حل الرموز وبرء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام".

يعد ذو النون – بحسب القشيري في رسالته- أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفي ، عدا عن كونه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع والمقامات والأحوال.

أودع ذو النون السجن مرارا لأنه قاوم المعتزلة لقولهم بخلق القرآن، كما اتهمه معاصروه بالزندقة وألبوا الخليفة المتوكل عليه بدعوى إحداثه علما لم تتكلم به الصحابة، فاستدعاه المتوكل لبغداد سنة 829م، ويقال أنه لما دخل عليه وعظه فبكى فرده إلى مصر مكرما.

من أقواله المأثورة التي تدل على رسوخ قدمه في العلم والورع:

- «مدار الكلام على أربع: حب الجليل، وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل».

- «لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاما».

- سئل عن التوبة فقال: «توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة».

-«من تذلل بالمسكنة والفقر إلى الله رفعه الله بعز الانقطاع إليه ».

-«إن لله عبادا تركوا المعصية استحياء منه بعد أن كانوا تركوها خشية منه ، أفما وقد أنذرك ».

ومن أشعاره قوله:

أموت وما ماتت إليك صبابتي *** ولا قضيت من صدق حبك أوطاري

مناي كل المنى أنت له منى *** وأنت الغني كل الغنى عند اقتداري

وأنت مدى سؤلي وغاية رغبتي *** وموضع آمالي ومكنون إضماري

تحمل قلبي فيك ما لا أبثه *** وإن طال سقمي فيك أو طال إضراري

وكغيره من الزهاد المتصوفين نُسجت حول ذي النون العديد من الخوارق والأساطير والكرامات، من ذلك مثلا ما يرويه صاحب (شذرات الذهب) من أنه لمّا توفي بالجيزة سنة 245هـ أخذت الطير الخضر ترفرف في جنازته حتى وصل إلى قبره.

رحم الله العارف بالله أبا الفيض.

الدرة السادسة:

الحارث المحاسبي... أستاذ البغداديين

" المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك "

يكنى بأبي عبد الله، أصله من قبيلة بادية ويسمى بالمحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه ويمتحن ضميره، هو الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري، ولد بالبصرة سنة 170هـ ورحل صغيرا إلى بغداد حيث تلقى تعليمه على يد العديد من الشيوخ ، أبرزهم يزيد بن هارون في الحديث وابن كلاب في علم الكلام. كان زاهدا ناسكا ورعا شديد التقشف وألف عدة تصانيف في التصوف وعلم الكلام والفقه والحديث لعل أهمها: "آداب النفوس " ،

"كتاب الرعاية لحقوق الله" "حلية الأولياء"... كل هذا أهله ليكون من أعظم صوفية القرن الثالث للهجرة، ولا غرو أن يلقبه السلمي صاحب (طبقات الصوفية) بـ "أستاذ أكثر البغداديين "، ومن أبرز من تتلمذ على يديه الجنيد والغزالي.غير أن ما يؤاخذ على المحاسبي اهتمامه الزائد بعلم الكلام ، وهو ما عابه عليه كثير من العلماء ، فهذا الذهبي في (السير) يقول: «...المحاسبي كبير القدر وقد دخل في شيء يسير من الكلام، فنقم عليه »، وورد أن الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وجه، وحذر منه.

ومن دلائل ورع المحاسبي محاربته للرذائل ، وما فشا في المجتمع آنذاك من ضروب الترف والانغماس في اللذات لدرجة أصبح معها مضربا للمثل في الزهد في متاع الدنيا ، من ذلك مثلا ما يُروى أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم ، لم يأخذ منها شيئا بذريعة أن أباه كان قدريا ، فمات وهو يعاني من الفقر والحاجة ، كما أنه كان يعرض عن تناول كل طعام فيه شبهة يقول عنه الجنيد:

«مرّ بي يوما، فرأيت فيه أثر الجوع فقلت: " يا عم ندخل الدار ونتناول شيئا " فقال: "نعم" فدخلت الدار وحملت إليه طعاما ، من عرس قوم، فأخذ لقمة وأدارها في فمه مرارا، ثم قام وألقاها في الدهليز وفرّ، فلما رأيته بعد أيام، قلت له في ذلك، فقال: " إني كنت جائعا أن أسرك بأكلي وأحفظ قلبك ، ولكن بيني وبين الله علامة ألا يسوغني طعاما فيه شبهة ، فلم يمكني ابتلاعه ، فمن أين كان لك ذلك الطعام؟ " فقلت:" أنه حمل إلي من دار قريب لي من العرس " ثم قلت له: " تدخل اليوم ؟" قال:" نعم " فقدمت إليه كسرا يابسة كانت لنا فأكل وقال: إذا قدمت إلى فقير شيئا فقدم مثل هذا» (الرسالة القشيرية).

إن التصوف من منظور المحاسبي يتأسس على قاعدة الحب الإلهي ما دام الله سبحانه وتعالى قد شهد للمؤمنين بالحب فقال: «والذين آمنوا أشد حبا لله»(البقرة:165)، وبناء عليه تصبح العلاقة بين الله وأحبائه محكومة بشريعة الحب يقول المحاسبي:

«إن الأصل في إخلاص الصوفية محبة الله واشتياقهم إليه ، وحياتهم الكريمة ثمرة حبهم الذي سبقهم في الوجود ، فإن كان الله قد اجتذبهم إليه مع الخلق ، فهم ينجذبون إليه

وإلى الخلق بسبب وجدهم الذي يوحدهم به، فليتصرف العارفون المخلصون مع سائر الناس كما أنعم الله عليهم إذ كلهم منجذب بشريعة الحب نحو أحديته ».

هكذا تصبح الذات الإلهية جوهر كل حبّ وما على المتصوف سوى إدامة هذا الحب والغرق في بحره حتى يملك عليه سمعه وبصره وقلبه ، وهذا طبعا لن يتأتى إلا من خلال محاسبة النفس والحرص على القيام بالعبادات ، وذلك في أفق العروج في مدارج مقامات الأولياء والصالحين.ومع ذلك لم يكن المحاسبي ممن يطمئنون إلى الأعمال ، مهما صلحت وعظمت لأن الاطمئنان إليها معناه قيام حجاب بين المرء وربه ، وبذلك لا تصفو محبة الله ولا تكون خالصة إلا بتحرير القلب من نوازعه ، وهو ما يستشف من بوراقه التالية يقول:

- «المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك ، ثم إيثار له على نفسك وزوجك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه ».

-«جوهر الإنسان الفضل وجوهر العقل التوفيق ».

رحل المحاسبي عن دار الدنيا في سنة 243 هـ ببغداد، فلتتنزّل عليه رحمات الله.

الدرة السابعة:

الجنيد ... سيّد الطائفة

" لونُ الماء لونُ إنائه "

كثيرة هي الألقاب التي جلّل بها الجنيد فهو "سيد الطائفة "، "طاووس الفقراء "، "شيخ المشايخ "، "تاج العارفين "، "مقدم الجماعة"... و "طاووس العلماء " و"شيخ طريقة التصوف ". ولم تكن هذه الألقاب – على كثرتها ودلالاتها الثرة - إلا لتعكس تلك المكانة الرفيعة التي حظي بها هذا الفقيه المتصوف الرصين الذي يمكن أن نعتبره واحدا من أبرز ممثلي التصوف السني الإسلامي المعتدل.

هو أبو القاسم الجنيد بن محمد، أصله من نهاوند، ولد ببغداد وبها تلقى تعليمه على يد العديد من الشيوخ والفقهاء كأبي ثور الفقيه، إذ كان يفتى في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، كما لازم خاله السري السقطي والمحاسبي ومحمد بن علي القصاب. قيل للجنيد من أين استفدت هذا العلم ؟ فأجاب: «من جلوسي في يدي الله ثلاثين سنة تحت هذه الدرجة» يعني درجة داره.

وعند عتبة الثلاثين سنة رأى السري السقطي أن الجنيد أصبح مؤهلا كي يصبح شيخا يدرس الناس العلم ويعقد الحلقات في المساجد، غير أن هذا الأخير تحشم ولم يجد نفسه أهلا لذلك حتى رأى ليلة في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت ليلة جمعة، فقال له عليه أفضل الصلاة والسلام:" تكلم على الناس " فانتبه من نومه، وأتى باب السري السقطي قبل أن يصبح [...] فقال له السري: لم تصدقنا حتى قيل لك، ولم يملك الجنيد سوى الامتثال لأمر رسول الله فشرع يعلّم الناس.

هكذا أصبح الجنيد منارة لكل من رام التزود والنهل من معين الفقه والتصوف والحديث والتفسير على امتداد العالم الإسلامي كله ، يقول الدكتور أبو العلا عفيفي في كتاب

(التصوف): «بأبي القاسم الجنيد البغدادي وصل التصوف الإسلامي في القرن الثالث إلى ذروته، وهو من غير شك أعمق صوفية هذا القرن روحانية وأكثرهم خصبا، كما أنه أكثرهم دقة وأعسرهم فهما». لننصت للجنيد وهو يرسم بشغف الناسك الولهان صورة عجيبة لهذا الاتصال/الفناء بين العبد وربه: «عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه. أحرق قلبه أنوار هويته وصفاء شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإذا تكلم فبالله وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكت فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ».(مدارج السالكين :ابن قيم الجوزية).

ولا غرو بعد هذا أن ينصح ابن خفيف المتصوفين بقوله : «اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا أحوالهم : الحارث المحاسبي ، والجنيد و رويم، وابن عطاء، وعمرو بن عثمان المكي ، قدس الله أسرارهم ، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق ».

إن هذا التوفيق بين الشريعة والحقيقة من خلال تبني منهج معتدل لا يتجاوز حدود الكتاب والسنة ، هو الذي جعل الجنيد يجوز القبول والاستحسان في العصر القديم كما في العصر الحديث، فإذا كان ابن تيمية يصفه بأنه إمام من أئمة الهدى في قوله: «...ولهذا كان الجنيد – رضي الله عنه- سيد الطائفة إمام هدى " ، فإن عبد الحليم محمود ينعته بأنه كان" متزنا كامل الاتزان، وكان متعبدّا على علم وكان عالما كأجمل وأعمق ما يكون العلم... والكل يدين له بالفضل ويعترف له بالتقدير ».

ملاك الأمر ، إن جوهر التصوف عند الجنيد هو فناء المحب وبقاءه بالمحبوب، يقول: «ومن ها هنا (يعني حالة الفقد) عرجت نفوس العارفين إلى الأماكن النضرة والمناظر الأنيقة والرياض الخضرة، وكل ما سوى ذلك عذاب عليهم، مما تحن إليه من أمرها الأول الذي تشمله الغيوب ويستأثر به المحبوب ». (محمد عفيفي:التصوف الثورة الروحية في الإسلام).قال أبو بكر العطوي: «كنت عند الجنيد حين مات، فرأيته ختم القرآن ثم ابتدأ من البقرة وقرأ سبعين آية ثم مات رحمه الله » (سنة 297هـ).

رحم الله الإمام الجنيد وأكرم بها من خاتمة !

الدرة الثامنة:

أبو مدين شعيب الغوث ... شيخ الشيوخ

" الحضور مع الله جنة ، والغيبة عنه نار"

بقطنيانة من أعمال اشبيلية بالأندلس كانت ولادة القطب الرباني أبي مدين شعيب الغوث سنة 509هـ، ويعرف باسم سيدي بومدين أو أبو مدين التلمساني، ويلقب ب"شيخ الشيوخ "، و" سلطان الوارثين "، أما أبرز تلامذته ابن عربي فلقبه بـ "معلم المعلمين ".

هو واحد من مؤسسي أهم مدارس التصوف بالغرب الإسلامي ، أمضى طفولته بالأندلس وذاق مرارة اليتم والفقر والكدح : ما بين رعي الغنم والخدمة في السفن والانخراط في الجندية. لكن ذلك لم يمنعه من حفظ القرآن والاستنارة بهديه السني ، وهو ما حفزه على الرحلة إلى المغرب – ولنذكر أن طلب العلم في القديم كان ملازما للرحلة- حيث استقر بسبتة ثم طنجة ليعرج على مراكش ومنها إلى فاس التي يقول عنها:

«سرت إليها ولازمت جامعها ورغبت في من علمني أحكام الوضوء والصلاة، ثم سألت عن مجالس العلماء فسرت إليها مجلسا بعد مجلس».

وفي مجالس فاس العلمية تتلمذ أبو مدين على يد الشيخ أبي يعزى يلنور والشيخ علي بن حرزهم الذي قرأ عليه الرعاية للمحاسبي ، والشيخ أبو الحسن بن غالب الذي أخذ عنه كتاب السنن للترمذي، والشيخ أبو عبد الله الدقاق وأخذ عنه التصوف. واستكمالا لرحلة العلم عزم الشيخ أبو مدين على الذهاب إلى المشرق للحج، وهناك أخذ عن العلماء وجاور الزهاد والأولياء ، فكان لقاؤه الشهير بالشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ألبسه الخرقة (خرقة الصوفية) بعد أن قرأ عليه الأحاديث في الحرم، ولدى عودته من المشرق استقر أبو مدين بمدينة بجاية شرق الجزائر، حيث طبقت شهرته الآفاق وشرع في تلقين طريقته لمريديه الكُثر، وعن أسس وأسانيد هذه الطريقة يقول:

«طريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده، عن الجنيد ،عن سري السقطي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ،عن جبرائيل عليه السلام، عن رب العالمين جلّ جلاله».

سيرا على سنة المتصوفين وهب أبو مدين نفسه للعبادة وطلب العلم ، فكان ذلك سبيله في تسنّم مدارج السالكين إلى الله ، أولئك التواقين إلى التنعم بقربه ، يقول في هذا الشأن " لا يصلح سماع هذا العلم – يعني التصوف- إلا لمن حصلت له أربعة: الزهد، العلم، والتوكل واليقين ». تلك هي المقامات التي رسمت مسرى رحلته العلمية التي يختزلها عبد الحليم محمود في كتابه: "شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث" قائلا:

« لقد تثقف سيدي أبي مدين كأحسن ما يكون المثقف ، تثقف من مصادر أصلية: القرآن الكريم، والسنن، الإحياء والرعاية، والرسالة القشيرية، وكان يصاحب في دراسته القمم: السنة النبوية، الحارث بن أسد المحاسبي، وحجة الإسلام، والإمام القشيري... وقد درس الفقه أيضا، وله فيه فتاوى نفيسة، ودرس التفسير وامتزج قلبه بنور القرآن، وكان عابدًا، فاجتمع له العلم والعبادة، فكان الشخصية الإسلامية المتكاملة، فلقد كان متفنّنًا في علوم الإسلام المختلفة، نقليًّا وعقليًّا ».

وللتدليل على مكانة الرجل العلمية الرائدة ، يكفي أن نذكر أن التادلي في كتابه: "التشوف إلى رجال التصوف" يؤكد : «خرّج أبو مدين ألف تلميذ ظهرت على كل واحد منهم كرامة ». ومن أشهر تلامذته الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي والشيخ أبو عبد الرحيم القنائي والشيخ أبو عبد الله القرشي.وعنه يقول ابن عربي: «الغالب على قلب سيدي أبو مدين وبصره مشاهدة الحق في كل شيء ».

خلف أبو مدين – رحمه الله- مؤلفات عدة ذكر من بينها الباحثون كتاب "أنس الوحيد ونزهة المريد"، كما أنه له أشعارا يتغنى بها في مجالس الذكر ننتخب منها قوله:

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا *** يبقى المكان على آثارهم عَطِرا

يهدي التصوف من أخلاقهم طرفا *** حسن التآلف منهم راقني نظرا

هم أهل ودي وأحبابي الذين همُ *** ممن يجر ذيول العز مفتخرا

في سنة 594هـ آثر أبو مدين أن يلقى ربه وهو يلهج بذكره: «الله الحي»، ذلك ما أنبأنا به ابن الآبار رحمة الله عليهما جميعا.

الدرة التاسعة:

عمر بن الفارض.... سلطان العاشقين

" ما بين معترك الأحداق والمهج .. أنا القتيل بلا إثم ولا حرج "

اشتهر بلقب "سلطان العاشقين"، هو عمر بن علي بن مرشد بن علي أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين بن الفارض، الحموي الأصل، ولد بمصر سنة 576هـ، نشأ في بيت معروف بالعلم والفقه والورع، إذ كان والده قاضيا شرعيا، اشتغل في فترة شبابه بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن العلامة المحدث ابن عساكر.

آثر طريق التصوف والزهد والتجرد لذلك انغمس في تجربة الوحدة والعزلة والخلوة بوادي المستضعفين بجبل المقطم، وكأنّي به يحاكي الرسول صلى الله عليه وسلم في خلوته وتحنثه في غار حراء، باحثا عن الحق والحقيقة.غبر أن لحظة التحول في المسار الصوفي لابن الفارض سرعان ما ستتبدى من خلال حكايته مع البقال إذ يسرد تفاصيلها قائلا: «فحضرت من السياحة يوما إلى المدينة ودخلت المدرسة السيوفية، فوجدت بقالا على باب المدرسة يتوضأ وضوءا غير مرتب، فقلت له: يا شيخ أنت في هذا السن في دار السلام على باب المدرسة بين فقهاء المسلمين وأنت تتوضأ وضوءا خارجا عن الترتيب الشرعي؟ فنظر إلي، وقال: يا عمر، أنت ما يفتح عليك في مصر، وإنما يفتح عليك بالحجاز في مكة شرفها الله، فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح» (أنظر ديباجة ديوان ابن الفارض).

من القاهرة إلى مكة سيرتحل ابن الفارض ليخط مسارا جديدا في تجربته الصوفية، إنها رحلة ذات تراتبات متوازية: مكانية، زمانية ومعرفية، هكذا أمضى الرجل خمسة عشرة سنة في رحاب الحرم المكي حيث حصل له الكشف والفتح والترقي في مدارج السالكين يقول في هذا الشأن:

يا سميري روح بمكة روحي *** شاديا إن رغبت في إسعادي

كان فيها أنسي ومعارج قدسي *** ومقامي المقام والفتح بادي

إن هذا الدفق الرباني والفتح اللدني كان يستلزم شكلا تعبيريا ليستوعبه، ولم يكن ذلك الشكل التعبيري سوى الشعر الذي استطاع أن يعكس التجربة الصوفية لابن الفارض، خاصة قصيدته الشهيرة المسماة "التائية الكبرى": والتي يزعم أحد أحفاده أن "أهل مكة يعلمونها أولادهم في المكاتب وينشدونها في الأسحار على المآذن" (ديباجة الديوان).

وبعد عودته لمصر تفرغ ابن الفارض لمجالس العلم في الأزهر، وكانت حلقات دروسه يحضرها الطلاب والعلماء والأمراء وكان يملي خلالها بعضا من أشعاره، غير أن حنينه الجارف إلى مكة سرعان ما ملك عليه روحه ووجدانه، يقول:

يا أهل ودّي هل لراجي وصلكم *** طمع فينعم باله استرواحا

مذ غبتم عن ناظري لي أنّه *** ملأت نواحي أرض مصر نواحا

إن مفارقة مكة تعني بالنسبة له نهاية الواردات والأوراد، يقول:

نقلتني عنها الحظوظ فجُذّت *** وارداتي ولم تدم أروادي

آه لو يسمح الزمان بعود *** فعسى أن تعود لي أعيادي

عموما يمكن القول أن ابن الفارض ضمّن مذهبه الصوفي في "العشق الإلهي" وفي "الفناء" و"الاتحاد" و"وحدة الوجود" في أشهر قصائد ديوانه، وهي (التائية الكبرى) التي أجمع المؤرخون والباحثون على أنها واحدة من عيون الشعر العربي التي احتفت باللغة الرمزية الشفيفة العاكسة لتجربة روحية فريدة.

أسلم ابن الفارض الروح لبارئها سنة 632هـ في مصر ودفن بجوار مكانه الأثير: جبل المقطم في مسجده الذي يحمل اسمه حتى يومنا هذا.رحم الله ابن الفارض وقدّس سره وهو القائل:" لك في الحيّ هالكٌ بك حيٌّ"

الدرة العاشرة:

الحلاج .... أسطورة صوفي متمرد

" لا يعرفه إلا من تعرف عليه".

صوفي متفرد عن غيره من رجالات التصوف، مسته لوثة التمرد والثورة ، فكان نسيج وحده... هو أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج المولود سنة 244هـ في قرية الطور ببلدة البيضاء ، التي يرجح أنها تقع في جنوب العراق. قيل أنه كني بالحلاج لأن أباه كان يحلج الصوف ، وهناك من رأى أنه سميّ بحلاج الأسرار لكشفه عن أسرار الباطن.

من أشهر معلميه سهل بن عبد الله التستري وعمر بن عثمان المكي الذي ألبسه الخرقة الصوفية بالبصرة ، قصد بغداد وهي حينذاك العاصمة الهادرة بالصراعات السياسية والدينية خاصة بين السنة والشيعة، وهناك التقى بالجنيد ولازمه مدة ثمانية عشر سنة ، غير أن الشيخ والمريد سرعان ما سيتجادلان فتتباعد الشقة بين مسارات التأويل عند الرجلين ، خاصة في مسألة اللطف ومسألة الإحسان ليتهم الشيخ (الجنيد) تلميذه (الحلاج) بأنه كثير الظنون دعيّ ممخرق.

لقد كان الحلاج كثير التنقل والسفر سواء إلى الحج أو إلى أماكن وبلدان مختلفة كإيران والصين وتركستان والهند وخراسان، وخلال تطوافه هذا عقد علاقات اجتماعية وصداقات كثيرة أتاحت له نشر دعوته إلى الحق على طريقته.

لا شك أن الحلاج امتاز عن غيره من المتصوفة بشخصية تطغى عليها سمات الغموض والغرابة ،إن كان ذلك على مستوى الحال أو المقال ، وليس بمستغرب أن يُقابل هذا الصوفي المتمرد بالاستهجان والفرض والإقصاء ، ولذلك أتهم بالسحر والشعوذة والخروج عن الشرع ، خاصة من قبل الفقهاء والعامة الذين لم يستطيعوا فهم لغته وعقيدته

التي لا يفك طلاسمها إلا "الخاصة" ممن هم أهل لها، وهو ما يفسره قوله: "أسرارنا بكر لا يغتصبها وهم واهم " (كتاب اللمع للطوسي).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن بعض المصادر التاريخية تذكر أن الحلاج كانت له صلات ببعض الحركات الثورية ذات النزوعات الاجتماعية مثل "حركة الزنج" و"حركة القرامطة و"الطائفة الإسماعيلية، لكن ومن خلال استقراء سيرة الرجل وأشعاره يتضح أنه يتعالى على كل تصنيف إيديولوجي، وله رؤية مخصوصة تستوعب كل الإشكالات الثقافية والسياسية لعصره ، تهدف في آخر المطاف إلى تحقيق تغيير جذري للنمط السياسي والاجتماعي والفكري السائد في المجتمع العربي الإسلامي.

ارتكزت رؤية الحلاج الصوفية على المحبة الإلهية القائمة على هذا التمازج الفريد بين "الاتحاد" و"وحدة الشهود " المفضي بدوره لما يسميه الصوفيون "مذهب وحدة الوجود" لننصت لهذه المختارات ، يقول:

فإن رمت شرقا أنت في الشرق شرقه *** وإن رمت غربا أنت نصب عياني

وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه *** وإن رمت تحتا أنت كل مكان

وفي موضع آخر يقول:

أدنيتني منك حتى *** ظننت أنك أنّي

وغبت في الوجد حتى *** أفنيت فيك عني

وإن تمنيت شيئا *** فأنت كل التمني

إن مثل هذه الأفكار وغيرها مثل قوله "أنا الحق" "أنا من أهوى ومن أهوى أنا "، "مزجت روحك في روحي" ... هي ما جرّت عليه سخط الفقهاء الذين نجحوا في تأليب رجال السياسة ضده ، فكان أن تم إعدامه سنة 309 هـ بطريقة تراجيدية و في مشهد مروع سردت تفاصيله الكثير من المتون والمظان التاريخية القديمة.

ومهما يكن الأمر فلا نملك إلا أن ندعو بالرحمة لرجل سيطر على وجدانه ووجوده حب خالق الأكوان فمضى يناجيه بقوله:

أنت بين الشغاف والقلب تجري *** مثل جري الدموع قي أجفاني

وتحل الضمير جوف فـــؤادي *** كحلول الأرواح في الأبـــدان

رجل كان يرى بعين قلبه ما لا يراه الآخرون بأعينهم ، يقول:

قلـوب العـــاشقين لها عـــيون *** ترى ما لا يراه الناظرونـا.

الدرة الحادية عشر:

البسطامي... سلطان العارفين

" لا يعرف نفسه من صحبته شهوته ".

أبرز وجوه المتصوفين الذين اشتهروا بالشطح، والشطح كما عرفه السرّاج في اللمع: "عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدة غليانه وغلبته ".هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي الأكبر ولد سنة 188هـ وتوفي سنة 261هـ كان جدّه مجوسيا فأسلم، نشأ في بيئة معروفة بالتقوى والورع، فأبوه كان رجلا صالحا حريصا على مرضاة الله في شؤون دينه ودنياه متحريا الحلال في مطعمه وملبسه وشرابه ومسكنه، وكذلك الشأن بالنسبة لأمّه التي انمازت حياتها بالتقوى والصلاح، وكان لها كبير أثر في توجيه ابنها وتربيته، يقول البسطامي عن علاقته بأمه:

«كنت أظن في برّي لأمي أني لا أقوم لهوى نفسي بل لتعظيم الشارع حيث أمر ببرّها، فكنت أجد في نفسي لذة عظيمة أتخيل أنها من تعظيم الحق عندي لا من موافقة نفسي». بل إن البسطامي زاد عن ذلك بأن اعتبر أن المرتبة التي حازها في مقامات التصوف، إنما هي ثمرة بره بأمّه «قيل له مرة: بم بلغت ما بلغت؟ قال: أنتم تقولون ما تقولون، وإنما أرى ذلك من رضا الأم ». وينضاف إلى برّه لأمه أنه كانت له أخوات عابدات صالحات، ولا ضير إذن أن يكون لتنشئته وبيئته إسهام كبير في تكوين شخصيته الصوفية وسمته الأخلاقي والمعرفي.

ومن أبرز مشايخه نذكر إسماعيل السدي وجعفر الصادق، اللذين روى عنهما بعد أن استظهر القرآن كله. وعن مساره التعليمي يقول البسطامي: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا في التجريد» (الرسالة القشيرية).

لم يحد البسطامي عن جادة المتصوفة في زهدهم في الدنيا وانصرافهم عن ملذاتها، إيمانا منه بأن سبيل المعرفة لا يدرك إلا من خلال التقشف والزهد، قيل له: بأي شيء وصلت إلى المعرفة؟ فقال: ببطن جائع وبدن عار. غير أن للبسطامي شطحات غريبة لم تستسغها ذائقة بعض الفقهاء الذين رموه بالإلحاد والكفر والهرطقة، من قبيل قوله: "سبحاني ما أعظم شأني" و"ما في الجبة إلا الله"، "أراد موسى –عليه السلام- أن يرى الله – تعالى- وأنا ما أردت أن أرى الله، هو أراد أن يراني". "كنت لي مرآة، فصرت أنا المرآة"..الخ.

وبالمقابل حاول بعض المتصوفة قديما وبعض الباحثين حديثا، أن يجدوا مسوغات وتخريجات لمثل هذه الشطحات، فالذهبي مثلا يقول: "وهذا الشطح إن صح عنه، فقد يكون قاله في حالة سكره ". أما "السلمي" في "تاريخ الصوفية" فيقول: "ويحكى عنه في الشطح أشياء، منها ما لا يصح، أو يكون مقولا عليه، وكان يرجع إلى أحوال سنية، ثم ساق بإسناد له عن أبي يزيد قال: من نظر إلى شاهدي بعين الاضطراب، وإلى أوقاتي بعين الاغتراب وإلى أحوالي بعين الاستدراج، وإلى كلامي بعين الافتراء، وإلى عباراتي بعين الاجتراء، وإلى نفسي بعين الازدراء، فقد أخطأ النظر إلي". في حين يرى محمد الراشد في "نظرية الحب والاتحاد في التصوف الإسلامي" أن البسطامي: "رجل سيطرت عليه رؤى وهواجس حتى وصل إلى ما وصل إليه، فتجاوز جنون العظمة وسقط في رحاب سيطرة الهواجس والأهواء ، لكن هذا كله لا يمنع أنه كان رجلا نقيّا تقيّا يخاف الله".

ومن الأقوال النفيسة التي تنسب للبسطامي:

-" إلهي لا تجعلني عالماً ولا زاهداً و لا متقرباً ، فإن أهَّلتني فأهلني لشويء من أشيائك".

- " العابد يعبده بالحال، والعارف الواصل يعبده في الحال".

- فَحُبِكَ فرَّضٌ كَيف لِي بِأَدَائِـه *** ولَسْتُ لِفرضٍ مَا حييت بتاركِ

- يقول: مررت بدير فيه راهبة فقلت لها : هل هنا مكان طاهر أصلي فيه ؟ فقالت : طهر قلبك وصلّ حيث شئت." وقوله:" من عرف الله بُهت ولم يتفرغ إلي الكلام. من عرف الله فإنه يزهد في كل شيء يشغله عنه ". رحم الله متصوفنا الجليل أبا يزيد.

الدرة الثانية عشر:

أبو بكر الشلبي ... شيخ الطائفة

" مَن كان بالحق تَلَفه ، كان الحقُّ خَلَفَه" .

صوفي زاهد أشاح عن الدنيا بوجهه بعد أن جادت عليه بأطيابها.. هو أبو بكر دلف بن جعفر بن يونس الشبلي، من قرية شبلية من أعمال أشروسنة، رأى النور في سمراء بالعراق عام 247هـ وتوفي سنة 861هـ. كان تركي الأصل وعمل أبوه في دار الخلافة في سمراء مما أتاح له العيش في كنف الأمراء والوزراء، وأهله فيما بعد للانتظام في سلك الوظيفة، ليعين كحاجب لأبي أحمد الموفق ثم أميرا على دوماند بطبرستان.

وعلى هدي من سلطان العاشقين ابن أدهم تحلل الشبلي من قيود الوظيفة ليعلن توبته قائلا: "مكنت والي بلدتكم، فاجعلوني في حل"، ولعل السبب الكامن وراء استقالته/توبته يتمثل في ما كان يلاحظه من كثرة المظالم والسعي بين الحكام بالباطن. ولاشك أن علاقته بالواعظ خير النساج كانت كذلك من بين أسباب التحول في مسار حياته وفكره، إذ بفضله اتصل بالجنيد البغدادي الذي غذي في نفسه حب التصوف والعبادات والزهد في الدنيا وأن لا يجعلها كل همه.

على هذا النحو تستقيم توبة الصوفي عموما من خلال إعمال آلية المراقبة والمحاسبة للنفس لتبلغ مرحلة الصفاء والطهارة فتنجلي مرآة القلب ويغدو موطنا للزهد والورع، يقول الشبلي: "الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين"، أما في تعليله لتسمية الصوفيين بالصوفيين، فيذهب إلى أنهم إنما استحقوا هذه التسمية "لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية"، ويقصد بالبقية الباقية تلك الطهارة الخلقية وذلك الصفاء الروحي المتأتيين من ترويض النفس وحملها على الانقطاع عن الدنيا وشهواتها والإقبال على العبادة بكل أشكالها.

وعن سؤال:ما علامة العارف؟ يجيب الشبلي بقوله: "صدره مشروح وقلبه مجروح وجسمه مطروح"، ويستطرد قائلا: "والصوفي من صفا قلبه من الكدر فصفا، وسلك طريق المصطفى، ورمى الدنيا خلف القفا، وأذاق الهوى طعم الجفا".

لئن كان الشبلي يشترك مع صاحبه الحلاج في اصطناع الشطح في مواجده وتعبيراته، فإنه كان أكثر حذرا وحيطة من الحسين بن منصور (الحرج) كيف لا وقد شهد على النهاية المأساوية التي أتت عليه، لذلك قنع شطحاته بمسحة الجنون، يقول في هذا الصدد: "أنا والحلاج في شيء واحد، فخلصني جنوني وأهلكه عقله" وقوله كذلك "كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا إلا أنه أظهر وكتمت".

تلك هي أسرار العارفين كنوز دفينة في سويداء قلوبهم، ومن يجرؤ على فتح باب مغاليقها يكون مصيره الردى والتهلكة، على نحو ما يطلعنا عليه المتصوف العارف السهروردي:

بالسر أن باحو تباح دماؤهم *** وكذا دماء العاشقين تباح

من نماذج شطحات الشبلي، أنه قال بعد أن تناول كسرة خبز من يد أحدهم فأكلها: "إن نفسي هذه تطلب مني كسرة خبز، ولو التفت سري إلى العرش والكرسي لاحترق" وقوله: "أنا أقول وأنا أسمع، فهل في الدار غيري"...الخ.

إذا كان فريق من الباحثين يرى أن اصطناع الجنون جنّب الشبلي مصيرا مثل مصير الحلاج، فإن فريقا آخر من الباحثين يعده واحدا من رموز المتصوفين المعتدلين، عدا عن أنه مالكي المذهب واحد حفظة القرآن ورواة الحديث الشريف، يقول عنه أبو عبد الله الرازي: "لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي". أما الشعراني فيصفه بكونه أوحد أهل الوقت علما وحالا وظرفا".

كانت وفاة الشبلي في سنة 334هـ، وكغيره من الصوفيين دفن إلى جواره بعض طلابه ومريديه، وأصبح قبره مزارا. تغمّده الله بواسع رحمته.

الدرة الثالثة عشر:

النوري... العابد الصدوق

" التصوف ترك كل حظ للنفس "

ببغداد عاصمة العباسيين كان مولده وبها نشأ، إنه أبو الحسين أحمد بن محمد البغوي النوري، أحد أساطين التصوف المرموقين، وعلم من أعلام أهل السنة والجماعة في القرن الثالث الهجري، يرتد أصله إلى خراسان وينتمي بالضبط إلى قرية تدعى "بعشور" وتقع بين هراة ومرو.

عرف بمصاحبته للسري السقطي، وأحمد بن أبي الحواري، ومحمد بن علي القصاب وعاصر الجنيد؛ الذي يبرز مكانته الرفيعة في قوله (يقصد النووري): "من أجل مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسن طريقة منه ولا ألطف كلاما".

انغمر النوري في لجة التصوف وأفرغ نفسه وقلبه للعبادة من خلال مداومة الذكر والإكثار من الصلاة والدعاء، ومجالسة النساك الصالحين، والانصراف عن فتن الدنيا والانقطاع والتجرد لله ولذلك فاز بحب الناس، فهذا أبو أحمد المغازلي يقول عنه: "ما رأيت أعبد من النوري، قيل: ولا الجنيد؟ قال: ولا الجنيد" والجنيد نفسه يقر بعلو شأوه إذ يقول: "منذ مات النووي لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد".

وكأغلب المتصوفة أمتحن النوري في دينه عقب رميه بتهمة الإلحاد والزندقة، لننصت إلى الإمام الذهبي في (سير أعلام النبلاء) وهو يلقي الضوء على محنة النوري وصحبه: "نسبوا الصوفية إلى الزندقة، فأمر الخليفة المعتضد في سنة أربع وستين ومئتين بالقبض عليهم، فأخذ في جملتهم النوري، فأدخلوا على الخليفة، فأمر بضرب أعناقهم، فبادر النوري إلى السياق، فقيل له في ذلك، فقال: آثرت حياتهم على نفسي ساعة، فتوقف السياق عن قتله، ورفع أمره إلى الخليفة، فرد الخليفة أمرهم إلى قاضي القضاة إسماعيل بن

إسحاق، فسأل أبا الحسين النوري عن مسائل في العبادات فأجاب، ثم قال: وبعد هذا، فلله عباد ينطقون بالله، ويأكلون بالله، ويسمعون بالله، فبكى إسماعيل القاضي وقال: إن كان هؤلاء القوم زنادقة، فليس في الأرض موحد فأطلقوهم".

هكذا يدافع الصوفي عن وجوده مثلما يدافع عن رؤيته وعن خطابه وعن تأويله، جاعلا من الله المبتدى والمنتهى في كل شيء، يقول النوري: "من عقل الأشياء بالله فرجوعه في كل شيء إلى الله".

ووجود الله – عند النوري- إنما يدرك بعين القلب لا بعين العقل، إذ القلب موئل الذكر وموطن الوجد ومعقل السر، وبه وفيه تزكو محبة الله، يقول:

الذكر يقطعني والوجد يطلعني *** والحق يمنع عن هذا وعن ذاكا

فلا وجود ولا سر أسر به *** حسبي فؤادي إذا ناديت لباكا

ويروى أن النوري سأله رجل ذات مرة: ما الله؟ فأجاب: الله تعالى، فسأله الرجل: ما العقل؟ فأجابه: العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

لقد خلد النوري اسمه في تاريخ التصوف الإسلامي باعتباره ناسكا محاربا لأهواء النفس وإغراءات الحياة الدنيا، وهو ما يستشف من تعريفه للتصوف إذ يقول: "التصوف ترك كل حظ للنفس" وكذلك قوله: "التصوف كراهية الدنيا"، مثلما يستشف من مسلكه الزهدي الذي يصفه القشيري في قوله: "كان يخرج كل يوم من داره ويحمل الخبز معه ثم يتصدق به في الطريق ويدخل مسجدا يصلي فيه إلى قريب من الظهر، ثم يخرج ويفتح باب حانوته ويصوم فكان أهله يتوهمون أنه يأكل في السوق، وأهل السوق يتوهمون أنه يأكل في بيته، وبقي على هذا في ابتدائه عشرين سنة".

توفي النوري سنة 299هـ الموافق لـ 907م ودفن ببغداد وسمي مرقده بضريح الشيخ أبو الحسين النوري، وعند انتقاله إلى دار البقاء قال الجنيد: "ذهب نصف العلم بموته"، رحم الله الجنيد والنوري والصوفية أجمعين.

الدرة الرابعة عشر:

السري السقطي ... إمام البغداديين

" اللهم ما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب "

منارة من منارات العلم والتربية الصوفية في القرن الثالث الهجري، وعلم من أعلام التصوف السني، وعالم مبرز من علماء أهل السنة والجماعة...ذلك هو أبو الحسن السري بن مفلس السقطي المولود سنة 160هـ، يرجح الكثير من المؤرخين والباحثين أنه أول من أعطى لعلم التوحيد كينونته القائمة الذات، علاوة على تمرسه بعلوم الحقائق والأحوال، تتلمذ على يد معروف الكرخي الذي كان له فضل كبير في توجيهه، يقول القشيري "[...] سمعت أبا العباس بن مسروق يقول، بلغني أن السري السقطي كان يتجر في السوق وهو من أصحاب معروف الكرخي، فجاءه معروف يوما ومعه صبي يتيم فقال: اكس هذا اليتيم، قال سري: فكسوته ففرح به معروف وقال: بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه، فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إلي من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف".

مثلما أفاد السري السقطي من شيوخه، كان له دور كبير في تكوين الصوفيين، ولعل أبرزهم ابن أخته الجنيد الذي يدلي بهذه الشهادة في حقه، يقول "ما رأيت أعبد من خالي، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا إلا في على الموت، دخلت عليه وهو في النزع فجلست عند رأسه ووضعت خذي على خذه فدمعت عيناي فوقع دمعي على خذه وقال لي: من أنت؟ قلت: خادمك الجنيد !، فقال: مرحبا، فقلت أوصني بوصية أنتفع بها بعدك قال: إياك ومصاحبة الأشرار، وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار".

إن ما يبتغيه الصوفي أولا وأخيرا هو أن يخلص نفسه للحضرة الإلهية حتى يتسنى له الأنس بها، يقول السري: "أربعة أشياء لا يسكن في القلب معها غيرها: الخوف من الله، والرجاء لله وحده، والحب لله وحده، والأنس بالله وحده".

هكذا يتضح أن التجربة الصوفية عند السري السقطي – كما عند الجنيد من بعده- تستمد أنوارها من مشكاة التوحيد، فالله الواحد الأحد هو محور كل الأقوال والأفعال الصادرة عن الصوفي/العبد: فهو إذ شكر شكر الله، وإذا أطاع أطاع الله، وإذا خاف خاف من الله، وإذا رجا رجا الله، وإذا افتقر افتقر إلى الله ...الخ، وإليكم جملة من أقوال السري التي تترجم حقيقة هذه العلاقة، يقول: "الشكر ثلاثة أوجه: للسام وللبدن وللقلب، فالثالث أن يعلم أن النعم كلها من الله، الثاني ألا يستعمل جوارحه إلا في طاعته بعد أن عافاه الله والأول دوام الحمد عليه".

-"من خاف الله خافه كل شيء".

-"اجعل فقرك إلى الله تستغني به عمن سواه".

-"المتصوف اسم لثلاث معان: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله".

إن الخيط الناظم لعلاقة العبد بربه إنما هو المحبة، وهي عند الصوفية "حالة شريفة شهد الحق سبحانه بها للعبد وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه" (الرسالة القشيرية). إنه الحب المفضي إلى الفناء يقول السري السقطي: "لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا"، وهذا التماهي/الفناء يعكس في طياته تجربة عشق إلهي يرتمي الصوفي المحب في أتونها ولا يبالي يقول السري:

من لم يبت والحب حشو فؤاده *** لم يدر كيف تفتت الأكباد

تلك هي ثنائية الفناء والبقاء كما بلورها الصوفيون من خلال عروجهم نحو الذات الإلهية، ذلك أن الفناء في الله موت والبقاء بالله بعث، يقول السري:

فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا *** وتذل حتى لا تجيب مناديا

وحتى لا يبقي لك الهوى *** سوى مقلة تبكي بها أو تناجيا

رحم الله السري السقطي وأسكنه فسيح جناته.

الدرة الخامسة عشر:

محيي الدين بن عربي... الشيخ الأكبر

" الطريق الى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين".

رائد الطريقة الصوفية الأكبرية، هو محيي الدين بن عربي بن علي بن محمد، الحاتمي، الطائي، الأندلسي، ولد بمرسية بالأندلس سنة 560هـ من أب مارسي وأم أمازيغية. نشأ نشأة دينية إذ كان أبوه من أئمة الفقه والحديث، أما جدّه فكان أحد قضاة الأندلس وعلمائها. انتقل رفقة أبيه إلى إشبيلية في سن الثامنة، حيث أخذ الفقه عن أبي بكر بن خلف وثلة من رجال الحديث والفقه. تنقل بين كثير من البلدان في المغرب والمشرق، واستقر به المقام بدمشق وبقي فيها إلى حين وفاته .

كان للرؤى المنامية دور كبير في توجيه حياته الروحية والفكرية، إذ يروى أنه مرض في شبابه مرضا شديدا ولما اشتدت عليه الحمى رأى في المنام أنه محاط بعدد ضخم من قوى الشرّ مسلحين، يريدون الفتك به، وفجأة رأى شخصا جميلا قويا مشرق الوجه يهاجم الأرواح الشريرة ويبددها فلم يبق منها أي أثر، فلما سأله ابن عربي: من أنت؟ أجابه الرجل: أنا سورة يس، وإذ ذاك استفاق فرأى والده جالسا إلى وسادته يتلو عند رأسه سورة يس، ثم ما لبث أن شفي من مرضه وأتته فكرة أنه مهيأ للحياة الروحية واقتنع بوجوب خوض تجربتها حتى النهاية.

وفضلا عن الفقه والحديث، تعلم ابن عربي بعضا من المذاهب الفلسفية التي كانت رائجة في الأندلس مثل مذهب الأمبذوقلية المحدثة المفعمة بالرموز والتأويلات، وكان أستاذه في هذا المضمار ابن العريف. وفي قرطبة تتلمذ على يد الفقيه الأندلسي ابن حزم الظاهري، ثم التقى بالفيلسوف ابن رشد بطلب من هذا الأخير الذي يقول عن ابن عربي: "فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها... والحمد لله الذي خصني برؤيته". كما درس ابن عربي التصوف عن الفيلسوف القرطبي "ابن مسرة".

اشتهر ابن عربي باعتكافه ومجاهداته وسياحاته، وقبل أن يجوز من الأندلس إلى المشرق، زار مدينة فاس بناء على رؤيا رآها، إذ سينال مقام التجلي في هذه المدينة سنة 593هـ في المسجد الأزهر وهو يصلي صلاة العصر يقول ابن عربي:" وهذا مقام نلته سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس في صلاة العصر... وأنا أصلي بجماعة بالمسجد الأزهر بجانب عين الجبل فرأيته نورا يكاد يكون أكشف من الذي بين يدي". ومن بين مشايخ الصوفية الذين أخذ عنهم ابن عربي في المغرب نذكر "أبا مدين الغوث التلمساني".

وفي مكة التقى ابن عربي بالنظّام وهي فتاة ابنة شيخ فارسي عرف بالتقوى والعلم والورع، وقد كانت تلك الفتاة على درجة كبيرة من الحسن الخَلقي والخُلقي، وعلى ذلك اتخذها ابن عربي رمزا ظاهريا للحكمة الخالدة وضمّن ذلك في ديوانه الشعري الشهير "ترجمان الأشواق".

إمتاز ابن عربي عن بقية المتصوفة بسعة الثقافة وغزارة التأليف وروعة الخيال، وخلف مؤلفات عدة لعل أشهرها ديوانه الشعري المذكور آنفا وكتابه الموسوعي: "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم" وغيرها. في ترجمته لابن عربي يقول ابن مسدي: "إن محيي الدين كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات"، وبسبب من هذه الباطنية تعرض ابن عربي للذم والتكفير من قبل الكثير من الفقهاء، وقد كان مدركا لمأزق التأويل عندهم حينما قال: "نحن قوم نحرم النظر في كتبنا، وذلك أن الصوفية تواطئوا على ألفاظ اصطلحوا عليها وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر وكفّرهم".

الحاصل إذن أن ابن عربي هو بلا ريب أشهر الصوفيين العرب المسلمين جميعا وأغزرهم إنتاجا وتأليفا، يدل على ذلك كثرة كتبه وسعة اطلاعه على علوم عصره وإتقانه لكل أجناس الأدب من شعر ونثر وقصص... ولعل هذه الميزة هي التي جعلت الدارسين يعكفون على إرثه/إنتاجه بالدرس والتحليل عبر مختلف الأجيال والعصور.ومن ابرز اقواله المأثورة الدالة على سعة ثقافته ونزعته الإنسانية المنبنية على الحب والتسامح:

- " لن تبلغ من الدين شيئاً حتى توقر جميع الخلائق..."
- " العالم هو إعتراف متبادل بالوجود بين الله والإنسان، عبر العقل ".

-" كل بقاء يكون بعده فناء لا يعوّل عليه.. كل فناء لا يعطي بقاء لا يعوّل عليه ".

- " العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء".
- " أدين بدين الحب أنَّى توجهتْ ركائبه، فالحب ديني وإيماني "

رحم الله "الشيخ الأكبر" و"الكبريت الأحمر": محيي الدين ابن عربي

الدرة السادسة عشر:

معروف الكرخي...العارف السموح

موتُ التقيّ حياةٌ لا نفادَ لها قد * ماتَ قومٌ وهمْ في الناسِ أحياء

واحد من أعلام التصوف السني في القرن الثاني للهجرة، وعالم مبرز من علماء أهل السنة والجماعة المشهورين بالزهد والورع والتقوى، كنيته: أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، أصله نبطي بابلي عراقي قديم، وأثبت كثير من المؤرخين أن محتده وأصله عربي. كان والداه يدينان بالنصرانية وأسلماه في صباه إلى مؤدبهم، فكان يأمره: "قل ثالث ثلاثة (يقصد التثليث النصراني)، فيرد عليه معروف: بل هو الواحد الصمد، فضربه على ذلك ضربا مبرحا، فلم يصبر على تعنيفه فهرب منه وانقطعت أخباره مدة فحزن والداه عليه حزنا كظيما ولسان حالهما يقول: " ليته يرجع إلينا على أي دين كان فنوافقه عليه"، فرجع ذات يوم فطرق الباب، فقيل: من؟ فقال: معروف، فقالا: على أي دين؟ قال: دين الإسلام، فما كان من والديه سوى أن اعتنقا الإسلام.

الثابت أن التسامح خُلق ديني، والمتصوفة أعلوا من شأن هذا الخلق نظرا وممارسة، ولعل معروفا واحد من هؤلاء الصوفيين الذين تشبعوا بهذه الفضيلة الأخلاقية، ويروى في هذا الصدد أنه كان قاعدا على نهر دجلة ببغداد، إذ مر به أحداث /غلمان في زورق يضربون الملاهي ويشربون، فقال له أصحابه، ما ترى هؤلاء – في هذا الماء- يعصون الله فهلا دعوت عليهم، فرفع يديه إلى السماء فقال متضرعا: "إلهي وسيدي ! كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة !" فقال له أصحابه: إنما قلنا لك ادع عليهم فقال:" إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم شيء".

تذهب أغلب المرويات التاريخية إلى أن معروفا الكرخي أسلم على يد الإمام علي ابن موسى الرضا الذي كان له الفضل في ترسيخ الجانب الأخلاقي في منحى حياته،

وبالتالي تأهيله للتشبع بمبادئ الزهد والتصوف، كما لا تفوتنا الإشارة إلى تتلمذه على يد الشيخ داود الطائي.

وفضلا عن خلق التسامح عرف معروف بكثرة الصيام والقيام والمجاهدة، ومن أشهر أقواله الدالة على خلقه القويم.

-"ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين في الصالحين"، وهو هنا يثمن قيمة ومزية الصدق في ظل مجتمع أصبحت تتنامى فيه صنوف الرياء والزيف والتصنع.

-"توكل على الله عز وجل حتى يكون معلمك ومؤنسك وموضع شكواك فإن الناس لا ينفعونك".

-"إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شرا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل".وفي هذا تكريس لمبدأ الاجتهاد والعمل والتوكل بدل الارتهان إلى التراخي والتكاسل والتواكل فالتصوف الحق إنجاز وممارسة قبل أن يكون نظرا ومشافهة، وسيرا على نفس النهج العملي وجدنا معروفا يقرر: "قيام الليل نور للمؤمن يوم القيامة يسعى بين يديه ومن خلفه وصيام النهار ببعد العبد من حر السعير، ينادي مناد يوم القيامة: يا مادح الله قم فلا يقوم إلا من كان يكثر من قراءة " قل هو الله أحد".

سئل معروف عن صفة الأولياء فأجاب: "ثلاثة: همومهم لله، وشغلهم فيه وفرارهم إليه". له، فيه وإليه: تلك هي عتبات العروج نحو الملأ الأعلى، هذا العروج المحكوم بوشيجة الحب والمفضي إلى مقام الأنس، وتلك هي منزلة العلم التي راضها معروف بانقطاعه لله وسلوكه نحوه، وهو ما تترجمه قولة أحمد بن جنبل: "وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف" (سير أعلام النبلاء).

رحمه الله الإمام أحمد والشيخ معروف.

الدرة السابعة عشر:

أبو الحسن الششتري ... الأمير الفقير

" نظرت فلم أنظر سواك أحبه "

شويخ من أرض مكناس *-* في وسط الأسواق يغني

إيش علي من الناس *-* وايش على الناس مني

ذاك هو "أبو الحسن" علي بن عبد الله النميري الششتري اللوشي، فالنميري نسبة إلى نمير، بطن من بطون هوازن، ولذلك فأصله عربي أندلسي، وأما الششتري فهو نسبة لششتر التي رأى النور فيها، وهي قرية صغيرة بالأندلس، في حين أن اللوشي نسبة إلى لوشة، القرية التي قضى فيها ردحًا من طفولته.

ولد الششتري في حوالي سنة 610هـ-1212م لأسرة ميسورة ذات جاه وسلطان، إذ يورد ابن لبون التجيبي في (الرسالة العلمية): «أنه كان من الأمراء وأولاد الأمراء فصار من الفقراء» ومن هنا جاء لقبه: "عروس الفقراء" و "أمير المتجردين". انبنى تكوينه الثقافي في البداية على حفظ القرآن ودراسة الفقه وأصوله، يقول ابن الخطيب عن هذه المرحلة في حياته: «وكان مجودا للقرآن، قائما عليه، عارفا بمعانيه، من أهل العلم والعمل» (كتاب الإحاطة). أما حكاية انصرافه عن الدنيا ومتاعها فكانت المؤشر الأكيد على بداية توطين نفسه على ثقافة التصوف، لننصت لابن عجيبة في (إيقاظ الهمم) وهو يرصد هذا التحول الهام في مسار الششتري، يقول:

«الششتري كان وزيرا وعالما وأبوه كان أميرا، فلما أراد الدخول في طريق القوم قال له شيخه: لا تنال منها شيئا حتى تبيع متاعك وتلبس قشابة وتأخذ بنديرا وتدخل السوق، ففعل جميع ذلك فقال له ما تقول في السوق ؟ فقال: قل بدأت بذكر الحبيب، فدخل السوق

يضرب بنديره ويقول: "بدأت بذكر الحبيب" فبقي ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغني في الأسواق بعلوم الأذواق ».

إن السياحة في الأرض والتتلمذ على يد المشايخ شرطان لازمان لاستكمال التربية الروحية لدى الصوفي، وبالفعل راهن الششتري على الرحلة، فكانت المعادل الموضوعي للنهل من حياض العلم اللدني ، حيث أتاحت له التفاعل مع أساطين التصوف، من أمثال أبي مدين الغوث، فحط الرحال بمدينة بجاية الجزائرية لينضم لحلقة أتباعه ، و كان أن تأثر بتراثه وأشعاره إلى حد بعيد، كما تعرّف من خلال "الصوفية المدينية"(نسبة لأبي مدين) على الفكر الصوفي لابن عربي خاصة، وفضلا عن ذلك عبّ العلوم الذوقية من مجلس القاضي "محيي الدين بن سراقة " وهو أحد تلامذة السهروردي الصوفي السني.

وبقدر ما غاص "أبو الحسن" في الطرق الصوفية نظرا وممارسة، ازداد انسحابه من الدنيا وتجرد من متعها وزخرفها فراح يلتزم طريق الزهد والورع وإخلاص النية لله، وفي غمرة هذا الإسراء الروحاني الصوفي، سيلتقي بأستاذه "ابن سبعين" الذي وسمت علاقته به بالافتتان والتأثر العميق، هكذا سيعبر الشيخ بمريده من ضفة التصوف السني إلى التصوف الفلسفي وهو ما يرمز إليه ابن سبعين مخاطبا الششتري: «إن كنت تريد الجنة فسر إلى "أبي مدين" وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إليّ » (المقري في نفح الطيب).

مسار الرحلة عند الششتري لا نهاية له، فبعد بجاية (الجزائر)، زار فاس ومكناس، ثم عرج على قابس (تونس)، وطرابلس (ليبيا) ليحط الرحال بقاهرة المعز بمصر حيث اكتشف الطريقة الشاذلية وأعجب بها واعتكف لمدة من الزمن بالأزهر الشريف، كما عقد حلقات دراسية بباب زويلة، إلا أن اصطدامه مع الفقهاء دفعه إلى مغادرة القاهرة ليجوب صحارى مصر ، ومنها رحل إلى الشام حيث اشترك في الجهاد ضد الصليبيين.

إذا كان ابن عربي أول من اصطنع "الموشح" في الكتابة الصوفية، فإن الششتري أول من استعمل "الزجل" كشكل تعبيري في التصوف، وقد اشتهر بقصيدته الرائعة شويخ من أرض مكناس التي تغنّى بها كثير من المشارقة في القديم كما في العصر الحديث.

ومن نماذج أشعار الششتري في الحب الإلهي قوله:

يا ساقي القوم من شذاه ** الكل لما سقيت تاهوا

ما شرب الكأس واحتساه ** إلا محب قد اصطفاه

ما قلت للقلب أين حبي؟ ** إلا وقال الضمير: ها هو

استبدت بشعر الششتري فكرة الحنين إلى الأصول الأولى (التراب/الأرض) والغريب أنه لما عاد إلى مصر وأثناء مروره بمكان قريب من دمياط يقال له "الطينة"، سأل عن اسم ذلك المكان فقيل له" الطينة "، آنذاك نطق بقولته الشهيرة: «حنت الطينة للطينة» فكان أن أسلم الروح لبارئها بذلك المكان فتحققت نبؤته/حلمه لينعم بالاتصال الذي طالما نشده.رحم الله أبا الحسن الششتري وأثابه.

الدرة الثامنة عشر:

السهروردي... الإشراقة الموءودة

" فطُوبَى لقَلْبٍ ذابَ فيكَ من البَلْوَى "

واحد من الشخصيات القلقة التي طبعت تاريخ الثقافة الإسلامية بميسمها الخاص والمتفرد، هو أبو الفتوح يحيى بن حبش الحكيم الملقب بشهاب الدين السهروردي، نسبة لسهرورد، القريبة من مدينة جازان شمالي إيران، اشتهر باسم "السهروردي المقتول" تمييزا له عن صوفيين آخرين هما: عمر السهروردي وأبو النجيب السهروردي.

ولد السهروردي حوالي سنة 549هـ وقيل سنة 551هـ، انتقل صغيرا إلى بلدة المراغة، حيث تلقى تعليمه الأول على يد الشيخ مجد الدين الجيلي وقد زامله في هذه الفترة فخر الدين الرازي، ثم انتقل بعدها إلى أصفهان حيث انفتح على دراسة المنطق والفلسفة من خلال تتلمذه على يد الشيخ ظهير الدين القاري، وكذا دراسة كتب "ابن سينا" و"عمر بن سهلان الساوي"، وفي هذا الصدد عمل على ترجمة رسالة الطير لابن سينا إلى الفارسية.

لاشك أن سعة الأفق الثقافي لدى السهروردي عبر تشبعه بالروافد الفقهية والفلسفية، مكنته من نحت "حكمته الإشراقية "، التي اكتمل قوامها من خلال عاملين اثنين: الأول ويتمثل في السفر بما هو مرادف ومضارع لطلب العلم، والثاني ويتجلى في مصاحبة المتصوفين ، وهو ما أتاح له الانخراط في تجربة التأمل والزهد وكذا تصفية النفس وتنقية القلب والجوارح.

أجمع الدارسون على نبوغ السهروردي وتمكنه من علوم عصره، وفي هذا الصدد يورد ابن خلكان توصيفا جامعا مانعا لثقافة الرجل، نقله عن ابن أبي صبيعة في (طبقات الأطباء) إذ يقول: "كان أوحد أهل زمانه في العلوم الحكيمة ، جامعا للفنون الفلسفية ، بارعا

في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة، لم يناظر أحدا إلا بزه، ولم يباحث محصلا إلا أربى عليه ، وكان علمه أكثر من عقله ".

إن سعة العلم هاته الطاغية على رجحان العقل هي ما أوقعت بالسهروردي في المحظور، وهنا ستحضر مأساة صوفي آخر كان قد افتتن به، ألا وهو الحلاج، إنه التاريخ ذلك الذي يعيد نفسه مرة أخرى إذ بعد أن أعياه التنقل بين الشام وفارس، استقر صوفي الإشراق في حلب، وهناك توثقت علاقته بالملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي، لكن حقد الفقهاء عليه جعلهم يوشون به لصلاح الدين مخوفين إياه من قدرته على إفساد [عقيدة] إبنه الملك الظاهر، بسبب فكره الصوفي ذي النزوع الإسماعيلي (نسبة للحركة الإسماعيلية التي كانت الدولة الفاطمية تتبنى عقيدتها)، فما كان من صلاح الدين إلا أن أصدر أمره بإعدام السهروردي... هكذا إذن ، اتحدت سلطة الفقيه مع سلطة السياسي لتخنق صوت الصوفية.

إذا كان الفقهاء قد تمترسوا خلف ظاهر النص، والفلاسفة تحصنوا بقلاع العقل ، فإن الصوفية رأوا العالم بعين القلب ولذلك اتسمت لغتهم ورؤاهم بالغرابة لاعتقادهم بأنهم اختصوا بعلم الباطنية، أي بأسرار الدين التي لم يستطع العامة والفقهاء فهمها. ومن أجمل أشعار السهروردي التي تعكس مأزق الصوفي، قوله في حائيته المشهورة التي تعتبر إحدى روائع قصيد الحب الإلهي:

وارحمتـا للعاشقيـن تكلفوا ** سر المحبة والهوى فضاح

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ** وكذا دماء العاشقين تباح

وقوله:

إليْكَ إشاراتي، وأنتَ الذى أهْوَى ** وأنتَ حَدِيثى بين أهل الهوَى يُرْوَى

وأنتَ مرادُ العاشقـــين بأسْرهِم ** فطُوبَى لقَلْبٍ ذابَ فيكَ من البــلْوَى

خلّف السهروردي العديد من الكتب لعل أهمها: "حكمة الإشراق" و"هياكل النور"، "مؤنس العشاق" و"الواردات الإلهية" و"مقامات الصوفية".

لئن أعدم السهروردي بتهمة الزندقة، فإنه من المؤكد أن إجماع العلماء لم ينعقد على مسألة زندقته وضلاله، بل إن عددا كبيرا منهم " كان يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات" بحسب ما ذكره ابن خلكان.

كانت وفاة السهروردي سنة 587 هـ/1191م، تغمده الله بواسع رحمته.

الدرة التاسعة عشر:

جلال الدين الرومي... مولانا

"إنك رأيت الصورة ولكنك غفلت عن المعنى"

هو محمد بن بهاء الدين محمد بن حسين بن أحمد الخطيبي، ينتهي نسبه إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد في بلدة بلخ في خراسان (أفغانستان حاليا) في سنة 604هـ/1207م لأسرة جمعت بين الوجاهة والعلم، فمن جهة كان أبوه فقيها وشاعرا وواعظا صوفيا حرص على تنشئة ابنه على الزهد والورع والتقوى، ومن جهة أخرى كانت أمه مؤمنة خاتون، أميرة من خوارزم وقد غرست في نفس ابنها حب الجمال ولقنته مبادئ الموسيقى.

لم يحد جلال الدين عن خط الترحال والسفر، فبسبب الاجتياح المغولي هاجرت أسرته وهو صغير إلى نيسابور، حيث أسعفه الحظ بلقاء الشاعر الصوفي "فريد العطار" الذي أهداه ديوانه "أسرار نامه" فكان بمثابة تأشيرة له نحو اقتحام عوالم الشعر والتصوف.وبعد نيسابور هاجرت عائلة الرومي إلى الشام ، حيث التقى في دمشق بالشيخ الأكبر ابن عربي، ثم جاز إلى مكة المكرمة للحج لينتهي به المقام بالأناضول وبالضبط في قونية عاصمة السلاجقة، وهناك اشتغل الأب أستاذا ومرشدا روحيا ليخلفه ابنه جلال الدين بعد وفاته.

وفي نفس المدينة (قونية) هيأ له القدر لقاء الشاعر الصوفي شمس الدين التبريزي، فنشأت بين القطبين صداقة استثنائية لتقارب كيمياء روحيهما الباحثتين عن نشوة الاتصال بالمطلق، لدرجة أن تلك الصداقة كانت مثار حسد بعض المريدين، ومن شدة إكبار جلال الدين الرومي لصديقه التبريزي وحبه له، أنه حزن حزنا كظيما إثر وفاته (أو اغتياله كما تزعم بعض المصادر)، وقد تجلت تلاوين هذه العاطفة الجياشة اتجاهه في ديوانه المسمى بـ "ديوان شمس التبريزي أو الديوان الكبير".

أثنى الكثير من الدارسين على جلال الدين الرومي وإبداعه، خاصة المستشرقين منهم ، فهذا "رينولد نيكلسون" الذي تولى ترجمة كتابه الشهير "المثنوي" إلى الإنجليزية يعده "أعظم شاعر صوفي في الإسلام "، يقول عن صوفيته:

«وشعره لا يقتبس صورة تأملات أصحاب نزعة وحدة الوجود، بل إن وحدة الوجود عنده، قد استولت عليها حرارة الإيمان والتهاب العاطفة ، وكلاهما يحول التفكير النظري التأملي إلى صوفية».اصطنع الرومي عدة وسائل تعبيرية للوصول إلى الله، منها الشعر والذكر والموسيقى، فالنسغ الروحي الذي يسكن الموسيقى هو ما يسعف المريد في التعرف على الذات الإلهية والانجذاب إليها ، خاصة إذا ما صاحبت هذه الموسيقى طقوس الرقص الدائري.

إن شاعرنا الصوفي ابن الرومي، وإن كان - بحسب جان شوفليي- لم يضف إلى الصوفية عناصر مذهبية جديدة ، فإنه أترعها بأشعار خالدة ذات نفس غنائي مؤثر، مما حذا بالبعض إلى مقارنته بالشاعر الإنجليزي ملتون وبالشاعر الفرنسي فيكتور هيجو.

ومن مصنفات جلال الدين الشهيرة نذكر: الرباعيات- ديوان الغزل– مجلدات المثنوي الستة ... وهي المصنفات التي كانت لها تأثير بالغ في الآداب التركية والعربية و الفارسية والأردية مثلما أسهمت في تطور التصوف الاسلامي شكلا وجوهرا ، وتبقى الطريقة المولوية (نسبة لمولانا الرومي) وإشعاعها في العالمين العربي والغربي حتى يومنا هذا أكبر دليل على ذلك.

لم يقف تأثير جلال الدين الرومي عند هذا الحد ، بل إن مؤلفاته تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات وامتد سحرها إلى الموسيقى ، فوجدنا مشاهير نجوم موسيقى البوب (مادونا) يغنون أشعاره، كما اتخذت أشهر رواية تركية - وهي "قواعد العشق الأربعون" للكاتبة التركية إيلاف شفيق - سيرته الذاتية خلفية لها ومتحت أحداثها من تجاويفها.

انتقل جلال الدين إلى جوار ربه سنة 1273م، وأصبح قبره مزارا إلى يومنا هذا، رحمة الله عليه.

الدرة العشرون:

عبد القادر الجيلاني... علم الأولياء

" طر إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة "

أبلغ تقديم لشيخنا عبد القادر الجيلاني، ذاك الذي سطره الإمام اليافعي بقوله: «قطب الأولياء الكرام، شيخ المسلمين والإسلام، ركن الشريعة وعلم الطريقة، شيخ الشيوخ، قدوة الأولياء الأكابر أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قدس الله سره ونور ضريحه، تحلى بحلي العلوم الشرعية وتجمل بتيجان الفنون الدينية، وتزود بأحسن الآداب وأشرف الأخلاق، قام بنص الكتاب والسنة خطيبا على الأشهاد، ودعا الخلق إلى الله سبحانه وتعالى فأسرعوا إلى الإنقياد، وأبرز جواهر التوحيد من بحار علوم تلاطمت أمواجها، وأبرأ النفوس من أسقامها وشفى الخواطر من أوهامها وكم رد إلى الله عاصيا، تتلمذ له خلق كثير من الفقهاء».

هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، سليل الدوحة العلوية إذ ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، رأى النور في سنة 470هـ/1077م، ببلدة جيلان العراقية الواقعة جنوب مدينة بغداد بحسب ما أجمعت عليه الكثير من الدراسات الأكاديمية. حباه الله بأسرة علم ودين، تربى في كنفها وتلقى تعليمه الأول عنها، قبل أن يشد الرحال وهو شاب يافع إلى بغداد، حيث تفقه على عدد من علمائها وأبرزهم أبو سعيد المخرمي.

اعتنق سيدي عبد القادر الجيلاني مذهب الإمام أحمد، وفي هذا الباب يقول عنه ابن السمعاني: «إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه صالح، دين خير، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة». إن إلقاء نظرة ولو سريعة على السياقات العامة التي طبعت عصر عبد القادر الجيلاني، يسعف لا محالة في فهم فكره الصوفي، ففي هذا العصر الذي تزامن

مع القرن السادس الهجري، استشرت عوامل التفكك والاضمحلال في كيان الدولة العباسية، فضعفت السلطة المركزية وعمت الاضطرابات السياسية والاجتماعية... مما جعل مطامع الأجانب تتقوى لتهدد صرح دولة الإسلام، خاصة من لدن المغول في الشرق والصليبيين في الغرب، فكان أن بدأت حضارة المسلمين في الأفول فانعكس ذلك على ميادين الفكر والثقافة، فاشتد أوار الصراع بين الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية، وتم التضييق على العلماء والفلاسفة ورفض محاولات التجديد والاجتهاد.

لكن هذا الواقع المرير لم يكن ليثن مولانا عبد القادر الجيلاني عن طلب العلم والتبحر في علوم الشريعة، خاصة وأنه اقتطع من عمره ثلاثين سنة من أجل بلوغ هذا المرام، وهو ما أهله للجلوس للوعظ والتدريس خاصة بعد وفاة أستاذه أبي سعيد المخرمي، وقد بلغ من شهرته أن أقبل طلاب العلم على مدرسته من كل حدب وصوب، وكانت دروسه تتوزع بين التفسير ،والحديث، واللغة، والأصول، والمذهب والخلاف، عدا القراءات والإفتاء على مذهبي الإمامين أحمد بن حنبل والشافعي.

تشتهر الطريقة القادرية بمنهجها التربوي المتأسس على المجاهدة والاتصاف بالأخلاق الكريمة : كالصدق، الوفاء، التواضع، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الكرم، الإخلاص...الخ. ومن بين أهم الشروط التي يوجب الشيخ عبد القادر توفرها في الشيخ المربي:

- الإحاطة بأحكام الشريعة والإلمام بالحلال والحرام، وعلم السنة النبوية وعلم حدود الشرع.
-علم الحقيقة والطريقة وعلم أحوال القلوب والنفوس وسبل تزكيتها ، فضلا عن ضبط أحوال السالكين ودرجات ترقيهم في الطريق إلى الله.

ويبقى أهم آثار الجيلاني كتابه: "الغنية لطالبي طريق الحق".

لقد بلغ من صلاح الشيخ الفاضل عبد القادر الجيلاني أن هدى كثيرا من الضالين، وأنصف كثيرا من المظلومين، ووقف في وجه الحكام الجائرين، من ذلك مثلا ما ذكره سبط

ابن الجوزي من أن الخليفة محمد المقتفي لأمر الله، ولى يحيى بن سعيد المعروف بابن المرجم القضاء، فما كان من هذا الأخير إلا أن جار على الخلق فكثر شططه ، ولم يقدر أحد أن يعارضه، فخاطب الشيخ عبد القادر الخليفة في أمره قائلا: «وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غدا عند رب العالمين؟» فعزل الخليفة القاضي الظالم.

ذلك هو عبد القادر الجيلاني، المربي، العالم، المرشد، الواعظ الذي استطاع من خلال تزكية النفس، وإعداد جيل من المريدين الخلص الأتقياء، أن يمهد الطريق لصلاح الدين الأيوبي كي ينهض بمسؤوليته التاريخية الكبرى، ألا وهي تحرير القدس من نير الصليبيين.

يكفي الشيخ عبد القادر فخرا أن حبه وهواه يتنازع فيه أهل المشرق والمغرب، كما أنه يعمر الذاكرة الشعبية كما الفكر العالم . كانت وفاة شيخنا رحمه الله سنة 561 هـ ببغداد حيث دفن في رواق مدرسته.

الدرة الواحدة والعشرون:

عبد السلام بن مشيش...الكنز المطمور

" لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله "

إمام الأئمة، شيخ المشايخ، الغوث الأشهر، القطب المبجل ، .. تلك بعض من الألقاب التي خُلعت عليه، لكني انتخبت لقب "الكنز المطمور" لأنه ينطبق عليه كثيرا، فالرجل بالرغم من المكانة الرفيعة التي يحتلها في مصاف الصوفيين الكبار إلا أننا – في المغرب- لم نوفه كل حقه في التعريف به ودراسة آثاره.

هو أبو محمد سيدي عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي، سليل المولى إدريس الأول فاتح المغرب، وبالتالي فنسبه ينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولد بمنطقة بني عروس بالقرب من مدينة طنجة، سنة 559هـ/1198م، ثم انتقل للعيش بجبل العلم قرب مدينة العرائش.

عُرف شيخنا الفاضل بخلقه الكريم وخصاله الحميدة وتواضعه الجم، فكان نموذج الناسك المنقطع عن الدنيا، الخنوع لله الواحد الأحد. كيف لا وقد هيأه نسبه الطاهر وبيئته المثلى لتسنم أعلى درجات التقوى والورع، وهو ما يجليه المؤرخ التليدي صاحب (المطرب بمشاهير أولياء المغرب) في قوله عنه:

«هو الذي أنواره منذ كان في المهد صبيا، ثم طوى في السياحة في صباه الأرض طيا [...] حفظ القرآن بالروايات السبع وهو ابن الثانية عشرة، وقضى في سياحته أكثر من خمسة عشرة سنة، درس وتعلم على يد كبار العلماء والشيوخ، من بينهم: الولي الصالح سيدي سليم شيخه في القرآن، والفقيه العلامة سيدي أحمد الملقب بأقطران، شيخه في الدراسة العلمية، ثم شيخه في التربية والسلوك العارف بالله سيدي عبد الرحمن بن الحسن

الشريف العطار المدني، الشهير بالزيات، الذي أخذ عنه الطريقة، وشرب من يده عوالم الحقيقة».

بنى مولاي عبد السلام بن مشيش تصوفه على أسس متينة من التوحيد استقاها من تبحره في علوم النقل وعلوم الصوفية، وزينها بالإنحياش عن الخلق من خلال التفرغ للعبادة والخلوة بجبل العلم. غير أن بلوغه هذا المستوى من النسك والورع والزهد، لم يكن ليصرفه عن مقاصد الشريعة وأصول الدين فعاش لدنياه كما لدينه فزرع أرضه وكدح فيها، وأنجب أولاده وحرص على تربيتهم تربية دينية صوفية. هكذا استحق شيخ الجبل تسنم مقام الصديقين نظرا وممارسة، فطابق قوله عمله، يقول:

«عباده الصديقين عشرون: كلوا، واشربوا، والبسوا، وانكحوا، واسكنوا، وضعوا كل شيء حيث أمركم الله، ولا تسرفوا، واعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، واشكروه فإنها نصف العقل، والنصف الثاني: أداء الفريضة، اجتناب المحارم [...] والتفقه في دين الله [...] وكل ورع لا يصحبه العلم والنور فلا تعدله أجرا» (كتاب القطب الشهيد لعبد الحليم محمود).

أنار الله سبحانه وتعالى بصيرة مولاي عبد السلام، واختصه بأسرار ربانية وعلوم لدنية بوأته منزلة رفيعة ، فكان ولا يزال قطبا صوفيا استثنائيا، تنتفع الأجيال على مر الأزمان بسيرته العطرة ووصاياه النفيسة وكراماته العجيبة، فيكفي محبي التصوف أن يطلعوا على واسطة عقده الصوفي المتمثلة في الصلاة الدينية المعروفة "بالصلاة المشيشية"، وهي نص بلوري يشع نورا وروحانية شفيفة، يجمع بين جمال المبنى وعمق المعنى، ويترجم تلك العاطفة الجياشة والمحبة الصافية التي يبديها العبد (الصوفي) اتجاه خالقه، يقول مولاي عبد السلام: «يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك وحل بيني وبين غيرك».

لقد عكف الدارسون قديما وحديثا على شرح "الصلاة المشيشية" مما يعكس قيمتها الفنية والدينية، وفضلا عنها ترك لنا قطب الجبل مجموعة من الوصايا التي لازالت خالدة إلى يومنا هذا ترسم معالم الطريق لكل المريدين وتضيء عتمات ليل السالكين؛ يقول:

«لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبا من معصية الله، ولا تصحب إلا من تسعين به على طاعة الله، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ما هم».

استمر شيخنا الجليل سيدي عبد السلام في جهاده ضد أصحاب البدع وأهل الضلالات حتى نال الشهادة وهو يهمّ بصلاة الصبح، فكان أن قتل من طرف أتباع ابن أبي الطواجين الكتامي سنة 622هـ، لكن شهرته طبقت الآفاق فأضحى ضريحه من أشهر مزارات المغرب إلى يومنا هذا .رحم الله عَلَم العلَم (الجبل)وأسكنه فسيح جنانه.

الدرة الثانية والعشرون:

سهل التستري...شيخ العارفين

" الجاهل ميت والناسي نائم، والعاصي سكران والمصر هالك"

واحد من أئمة التصوف وأساطين العلم الشرعي في القرن الثالث الهجري، أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري، كانت ولادته بمدينة تستر في عام 200 هـ، وإليها تعود نسبته وهي من أشهر وأعظم مدن خوزستان.

انجذب التستري إلى نور التصوف في سن مبكرة، وكانت صلته بخاله محمد بن سوار أول علامة على الطريق، ذلك ما نفيده من هذا النص الوارد في (الرسالة القشيرية) للإمام القشيري، يقول على لسان التستري:

«كنت ابن ثلاث سنين وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم الليل فربما كان يقول لي: يا سهل اذهب فنم فقد شغلت قلبي [...] قال لي خالي يوما ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي ، الله شاهدي . فقلت ذلك ثلاث ليال ثم أعلمته. فقال لي: قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته. فقال: قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة فقلت ذلك، فوقع في قلبي له حلاوة فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لها حلاوة في سري».

هاهنا تكمن أهمية الذكر باعتباره ركنا ركينا في طريق السالك أثناء عروجه نحو الملأ الأعلى، وهو ذكر القلب لا ذكر اللسان، ولذلك قال الشيخ لمريده: «قل بقلبك... من غير أن تحرك لسانك».

يمضي شيخنا التستري في سبيل الاستزادة والاغتراف من بحر التصوف، فيخرج من "تستر" مكرها، بعد أن اتهم في دينه بسبب عدم استساغة "العامة" لبعض أفكاره،

ليلتحق بالبصرة ثم بعبادان، حيث التقى شيخه حمزة العباداني، يقول: «فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة ابن عبد الله العباداني [...] وأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه». ومن المتصوفة الذين أخذ عنهم التستري، نجد ذا النون المصري الذي لقيه في الحج ولازمه، إضافة إلى ارتباطه بأصحاب الحديث، وهو القائل لهم: «اجتهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر».

أجمع الدارسون على أن تصوف التستري لم يخرج عن نطاق أهل الجماعة والسنة، فهذا ابن تيمية في القديم يمدحه قائلا: «وكلام سهل بن عبد الله في السنة وأصول الاعتقادات أسد وأصوب من كلام غيره». ولهذا السبب لقب عند الكثيرين بـ "سيد وشيخ الطائفة". أما في العصر الحديث فنجد جان شوفليي يقول عنه «ولقد كان من أقوياء النساك... وكون منصبا أخلاقيا فيها [أي في البصرة] أكثر منه نظريا تأمليا. وقد كان لمنصبه أثر بالغ ، مما أدى إلى أن يكون به مريديون كثيرون انخرطوا في سلكه. وكان يتشبث بالشريعة على طريق أهل السنة والجماعة» (كتاب التصوف والمتصوفة).

ومن أشهر تلامذة التستري نذكر: أبا الفضل القشيري، الحلاج، عبد الجبار بن شيراز، أبو علي البصري، وغيرهم كثير، أما الكتب التي نسبت له فكثيرة أيضا، منها على سبيل التمثيل لا الحصر:"مواعظ العارفين"، "الغاية لأهل النهاية"، "تفسير القرآن الكريم"، مقالة في المنهيات.

الحاصل إذن أن مذهب التستري من خلال سيرته وتراثه ينضوي ضمن التصوف السني، ومن أبرز مقولاته التي تدعم هذا المعطى ما جاء على لسانه في (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصفهاني:

" أصولنا ستة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة وأداء الحقوق». أما التصوف فيعرفه بقوله: «التصوف: قلة الطعام، والسكون إلى الله، والفرار من الناس».

كانت وفاة شيخنا الزاهد بالبصرة سنة 283هـ، تغمده الله بواسع رحمته.

الدرة الثالثة والعشرون:

ابن عطاء الله السكندري... ترجمان الواصلين

" من أشرقت بدايته أشرقت نهايته "

أحد أقطاب الطريقة الشاذلية الصوفية، فقيه مالكي مبرز، لقب بعدة ألقاب منها: "مرشد السالكين" ، "قطب العارفين" و"ترجمان الواصلين"، ذلك هو الإمام تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد، المعروف بابن عطاء الله السكندري، ولد بالإسكندرية حوالي سنة 658هـ/1260م، ينتهي نسبه إلى قبيلة جذام العربية.

تفرغ ابن عطاء الله منذ صباه للتفقه في العلوم الشرعية، من تفسير وحديث وفقه وأصول، عدا عن طلبه العلوم اللغوية من نحو، وصرف ،ولغة ،وبلاغة، وبيان... ودفع به عامل التكوين الفقهي إلى الانتصار للفقهاء على حساب المتصوفة الذين ناصبهم العداء وأنكر عقيدتهم ، واستمر على هذا الحال إلى أن قابل الصوفي أبا العباس المرسي، الذي عبّد له الطريق نحو التعرف على مذهب الصوفية، فانقلب إنكاره إلى حب شديد غزا قلبه ، فأقبل على طريق الصوفية وأضحى أبرز مريدي أبي العباس، ثم ما لبث أن ترقى في منازل الصوفية، فتوسم فيه شيخه (أبو العباس) النباهة والفطنة وبشره ببلوغ الأرب مخاطبا إياه: «والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعيا إلى الله وموصلا إلى الله، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا وكذا» وكذلك كان، إذ إن فراسة المؤمن/الصوفي لا تخطئ.

زواج السكندري بين التعاطي لطلب العلم ومصاحبة الصوفية ، دون أن يغفل أمور دنياه، فقاده اجتهاده ونبوغه ليكون خير وريث لعلم شيخه أبي العباس، فقام على طريقته (الشاذلية) ينشر تعاليمها ويشرح منهاجها التربوي، من خلال دروسه ومواعظه، سواء في الإسكندرية أو في القاهرة حيث كان يعقد حلقاته بالجامع الأزهر الشريف.

لقد كان ابن عطاء الله السكندري نموذجا للعالم التقي الصالح، وللصوفي الزاهد، وقد حباه الله بميزة التواصل مع مريديه وتلامذته الكثر، يقول الذهبي مجليا هذا الأمر: «كان ابن عطاء الله يتكلم بالجامع الأزهر... فوق كرسي بكلام يروح النفس، ويمزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم، وكانت له جلالة عجيبة، ووقع في النفوس، ومشاركة في الفضائل».

من أبرز كتب شيخنا ابن عطاء الله : كتاب "لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن" ، وقد جاء تأليفه له في سياق دفاعه على قطبي الطريقة الشاذلية: أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي، بعد الهجوم الذي شنه الفقيه ابن تيمية عليهما وعلى الصوفية عموما، ولذلك نشأت خصومة بين الرجلين وهي خصومة تبرز الصراع التاريخي والمعرفي بين الفقهاء والمتصوفة، أو ما يصطلح عليه بصراع أهل الظاهر وأهل الباطن.

وإضافة إلى "لطائف المنن" ترك السكندري العديد من المصنفات من بينها مثلا:

- ✓ تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس.
- ✓ عنوان التوفيق في آداب الطريق.
- ✓ مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

ويبقى كتاب "الحكم العطائية" أشهرها وأهمها، ودليلنا على ذلك أنه لم يفقد راهنيته إلى اليوم، ولا يزال متداولا ويدرس في الأزهر، كما أن غالبية هذه الحكم ترجمت إلى اللغتين الإنجليزية والإسبانية.

ومن حكمه المأثورة ومواعظه الحسنة:

- ✓ لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقامه.
- ✓ من علامات النجاح في النهايات، العودة إلى الله في البدايات.

- سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة

وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

- ✓ تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب ، خير لك من تشوفك إلى ما حجب عنك من العيوب.

بجبل المقطم الذي كان يتعبد فيه ابن الفارض، دفن جثمان ابن عطاء الله في سنة 709هـ، وقد أقيم على قبره مسجد يحمل اسمه وذلك في سنة 1973، فليشمله الله بواسع رحمته.

الدرة الرابعة والعشرون:

أبو الحسن الشاذلي...تاج الأقطاب

«التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية»

هو تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الجبار الشريف الإدريسي، مؤسس الطريقة الشاذلية، سليل الأدارسة الشرفاء، ولد في منطقة غمارة بريف المغرب سنة 591هـ الموافق لـ 1195م، نشأ وتربى في قبائل بني زرويل بالقرب من مدينة شفشاون.

عرف أبو الحسن منذ صغره بالورع وكثرة الذكر، وحمله طموحه القوي وعلو همته إلى الانخراط في تجربة السياحات، فخرج إلى الحج في حدود عام 620هـ، ثم عرج على بغداد ليحتك بكبار المتصوفة والعلماء وكله رغبة وشوق للقاء قطب الزمان، فنصحه الشيخ أبو الفتح الواسطي بسلوك خط الرجعة إلى المغرب الأقصى، حيث سيدرك مرامه وينال بغيته، ولم يكن القطب سوى مولاي عبد السلام بن مشيش.

هكذا انضم شيخنا الجليل سيدي أبو الحسن إلى رباط مولاي عبد السلام برأس جبل العلم، فتتلمذ على يديه وغرف من بحر علومه الدينية وأسراره الصوفية، ولما اطمأن الشيخ إلى مؤهلات مريده وسعة أفقه، أجازه وعهد له بالولاية قائلا: «يا علي، الله الله، والناس نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثل مع قلوبهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، فقد تمت ولاية الله عليك» ، ثم ما لبث أن رسم له خريطة سفره الروحي لنيل الكمالات الدينية والتحقق بالمنازل الروحية، فقال له: «يا علي، ارتحل إلى إفريقية (يعني تونس حاليا) واسكن بها بلدا تسمى بشاذلة، فإن الله عز وجل يسميك الشاذلي، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى أرض المشرق وبها ترث القطابة» (كتاب "أبو الحسن الشاذلي: عبد الحليم محمود).

عمل أبو الحسن بنصيحة شيخه وشد الرحال إلى تونس، حيث نزل ببلدة شاذلة ثم ما لبث أن انقطع للعبادة والمجاهدة بمغارة بجبل "زغوان"، ليلتحق فيما بعد بتونس

وضواحيها، وهناك كان يحضر مجالس الصوفية وحلقات الذكر بجامع الزيتونة، وفي ذلك الإبان تعرف إلى الشيخ الصالح أبي سعيد الباجي فأفاد منه كثيرا ، سواء في ورعه وزهده، أو في تجربته الروحية القائمة على التأمل والاعتبار.

لقد سطع نجم أبي الحسن في تونس خاصة بعد وفاة أستاذه الباجي وخلافته له على رأس حلقته الصوفية، إذ ذاك انطلق الشاذلي في تربية المريدين من خلال دروس الوعظ والإرشاد، وهي الدروس التي أسهمت في ترقيهم في سلم الكشف والتصوف السني. غير أن ذلك أجج حقد الفقهاء عليه فراحوا يكيدون له عند حاكم تونس الأمير "أبي زكريا الحفصي"، هذا الأخير الذي قرر محاكمته وسجنه لولا تدخل أخ الأمير المدعو : أبو عبد الله محمد اللحياني الذي خلصه من ذلك الحكم الجار.

لم يكن أمام أبي الحسن سوى الرحيل إلى مصر، حيث استقبل بحفاوة بالغة، فكثر مريدوه، لما اشتهر به من ورع متين وعلم مكين ومناظرات وازنة. هكذا صحت نبوءة مولاي عبد السلام بن مشيش في حق تلميذه أبي الحسن، فحاز القطبية بمصر واكتمل قوام طريقته الصوفية المتأسسة على منهج الكتاب والسنة، فضلا عن سبعة أركان تتحدد في: التوبة، الاستغفار، الزهد، محبة الله سبحانه وتعالى، محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، الخلوة، الذكر والشيخ المرشد.

لكن ولسوء الحظ، لم يقيض لدروس ومفاهيم الشيخ أبي الحسن أن تعرف طريقها للتدوين، اللهم ما كان من بعض وصايا شيخه مولاي عبد السلام، وكذا أحزابه ومنها حزب الإخفاء، حزب اللطف، الحزب الكبير. وهذه الأحزاب هي عبارة عن نصوص كرسها لتوحيد الله وتسبيحه ، وكذا مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتوسل إلى الله طلبا للطف والمغفرة والرحمة.

لقد تفرد أبو الحسن بأقواله الحكمية ونظراته الفلسفية ،ومن ذلك مثلا تعريفه للذكر بقوله: «ما اطمأن بمعناه القلب ، وتجلى في حقائق سحائب أنوار الله، والانقطاع عن الذكر إلى المذكور وعن كل شيء سواه». أما التقوى فيبرزه بقوله: «لا تقوى لمحب الدنيا، إنما

التقوى لمن أعرض عنها». في حين يقدم تفسيرا عجيبا لمسألة هبوط آدم إلى الأرض، حيث يقول: «ما أنزل الله آدم من الجنة إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، فنزوله نزول كرامة لا نزول مهانة» ، وعلى هذا الأساس وجب على الإنسان تكريس حياته لنشدان السمو والتحقق بالعالم العلوي.

رحيل في رحيل... تلك هي السمة التي طبعت حياة الشاذلي، إذ شاءت الأقدار الإلهية، أن يرحل عن هذه الدنيا وهو في طريقه إلى الحج، كان ذلك بصحراء عذاب في الجنوب من أسوان بمصر في سنة 656هـ . فليرحمك الله يا متصوف المشرق والمغرب !

الدرة الخامسة والعشرون:

أبو العباس المرسي... ولي الإسكندرية الجليل

" ذاب رسمي وصح صدق فنائي*** وتجلت للسر شمس سمائي"

استمد لقبه من مدينة مرسية الأندلسية، حيث رأى النور في عام 616هـ الموافق لـ 1219م، هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الخزرجي الأنصاري، ينتهي نسبه إلى الصحابي سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه، عاش في بيئة صالحة هيأت له ظروف التنشئة السوية، إذ تفقه في أمور الدين منذ نعومة أظافره، فحفظ القرآن الكريم في ظرف سنة واحدة، وكان ذلك علامة بارزة على نبوغ الفتى ونجابته. اشتغل مع أبيه في التجارة ، وكان يغدق مالا كثيرا على الفقراء والمساكين وذوي الحاجة.

اشتهر أبو العباس بزهده وورعه ونبل أخلاقه فكان صواما قواما، مما أهله لدخول طريق التصوف. شكل الحج إلى بيت الله الحرام أول خطوة في هذا الطريق، إذ قر عزم والد أبي العباس على اصطحابه بمعية أمه وأخيه إلى مكة وذلك في سنة 640هـ، لكن المركب الذي حملهم تعرض للغرق قبالة سواحل تونس، فشاءت الأقدار الإلهية أن ينجو أبو العباس وأخوه من هذا الحادث المفجع، فقصدا تونس واستقرا بها. وهناك طرأ التحول الذي سيترك ميسمه الواضح على المسار الحياتي والفكري لأبي العباس.

لننصت لشيخنا وهو يلقي الضوء على ظروف هذا التحول؛ يقول:

«لما نزلت بتونس وكنت أتيت من مرسية بالأندلس، وأنا إذ ذاك شاب سمعت بالشيخ أبي الحسن الشاذلي، فقال لي رجل: "نمضي إليه"، فقلت: "حتى أستخير الله". فنمت تلك الليلة فرأيت كأني أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه رأيت هناك رجلا عليه برنس أخضر ، وهو جالس عن يمينه رجل وعن يساره رجل فنظرت إليه فقال: "عثرت على خليفة الزمان"، قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الفجر جاءني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ ، فسرت معه فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التي رأيته بها فوق جبل زغوان،

فدهشت فقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: "عثرت على خليفة الزمان، ما اسمك؟ فذكرت له اسمي ونسبي، فقال لي: رفعت إلي منذ عشر سنين».

الرؤيا في عرف المتصوف علامة فارقة في الطريق... بها يستهدي في ليل السالكين، هكذا لازم أبو العباس شيخه، سيرا على نهج الصوفيين الخلص، فحظي بثقته لما أبداه من صفاء سريرة ،ونقاء قلب، واجتهاد في المجاهدات والعبادات، فما كان من الشاذلي إلا أن أورثه سره وأناطه عهده ليكون خير خلف لخير سلف، يقول مخاطبا له: «يا أبا العباس ما صحبتك إلا أن تكون أنت أنا وأنا أنت»، وقد أثمرت هذه الصحبة الجليلة تناغما فكريا وروحيا بين الشيخ وتلميذه، زكته آصرة المصاهرة بينهما إذ تزوج سيدنا أبو العباس من ابنه الشاذلي، ورافقه في سفره إلى مصر حيث اضطلعا كليهما في نشر العلم وتربية المريدين، فكان أبو العباس ينتقل بين القاهرة والإسكندرية، واعظا ومرشدا ، وهاديا إلى طريق الحق.

لم يفارق أبو العباس المرسي شيخه وخليله الشاذلي في حله وترحاله، ففي سنة 565هـ يمما وجهيهما شطر مكة بقصد أداء فريضة الحج ، فمرض الشيخ مرضا شديدا وأسلم الروح لبارئها في صحراء مصر، فلما رجع المرسي من الحج تابع نهج أستاذه وأرسى دعائم طريقته فزادت توهجا وشهرة، فاستقطب المريدين والزوار من كل البقاع والأقطار .

انماز أبو العباس من بين المتصوفة بتنوع مصادر تكوينه وإتقانه لعلوم عصره، ما بين فقه وتفسير، وحديث ومنطق ، وفلسفة وتصوف، وهذا ما انعكس على فكره وتراثه، الذي جاء مترعا بقيم الورع والتقوى على ندرة ما انتهى إلينا منه، ونكتفي بإيراد هذه الإضاءات السنية لشيخنا الجليل:

- " الأنبياء إلى أممهم عطية ونبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هدية، وفرق بين العطية والهدية لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا رحمة مهداة»."

- " اللهم كن بنا رؤوفا ، وعلينا عطوفا، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، اللهم قومنا إذا اعوججنا، وأعنا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا إليك إذا عثرنا، وكن لنا حيث كنا ".
- " من كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو مزج القلب بالله ".
- " من كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر".
- " من كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله عليه، إذ هداه الله لها ودفعه للقيام بها ".
- " من كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار".
- " الأكوان كلها عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة ".

وافت المنية إمام الإسكندرية – رحمه الله - في سنة 686هـ، و أقيم على قبره أحد أكبر مساجد الإسكندرية (حاليا) ، وقد قام ببنائه وزخرفته المعماري الإيطالي ماريو روسي، الذي اعتنق الإسلام واستمر في بناء المساجد.

الدرة السادسة والعشرون:

النفري ...نسيج وحده

" وقال لي : سر، فأنا دليلك إلي"

صوفي متفرد، يمتطي صهوة الرحيل، يلوذ بقلاع الصمت، يمضي متأملا أسرار الكون، يلقي عصا التسيار على باب خالقه، غير آبه بأحد من الخلق...ذلك هو المتوكل على الله حقا. ها نحن نجاور اليوم صوفيا ليس كالصوفيين، يدعى محمدا بن عبد الجبار بن حسن الملقب بالنفري نسبة لبلدة " نفر" القريبة من مدينة الكوفة في العراق، والتي يعود أصل تسميتها إلى مدينة بابلية موغلة في القدم اسمها " نيبور"، ونيبور هاته كانت على مدار التاريخ مركزا دينيا، احتضن ديانات قديمة مختلفة من زرادشتية ومانوية ومسيحية...الخ.

من المفارقات التي يلحظها كل دارس لشخصية "النفري"، أن هذا المتصوف الاستثنائي بالرغم من فرادته ونبوغه، قوبل بإهمال كبير من لدن القدماء،ذلك أن المصنفات النقدية الكبرى لم تعنى به باستثناء ابن عربي الذي ذكره في الفتوحات المكية واحتفى به كثيرا ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى بعض الإلماعات التي أشارت إليه على استحياء، كما هو الحال عند الذهبي وحاجي خليفة، ولعل السبب في ذلك يرجع – حسبما أجمع عليه الكثير من الدارسين- إلى مأساة الحلاج التي ألقت بظلالها على الصوفيين والمهتمين بالتصوف على حد سواء، فكان أن خفت صوتهم واضطروا إلى نهج أسلوب التكتم والتقية. ولم يحد النفري عن سربهم باعتباره كان شاهدا على نكبة الحلاج كذلك، فمال إلى التوحد بذاته والانكفاء عليها، ووجد في الصمت والارتحال خير متنفس ، ولذلك وصفه رينولد نيكلسون بقوله:"درويش ، جواب آفاق ، مغامر في أقطار الأرض ". لقد عاش النفري في إبان الدولة العباسية وارتحل بين العراق ومصر، والثابت أنه لم يدون دروسه، بل كان يلقيها شفهيا على مريديه، ومن أشهر الكتب التي تنسب إليه :"المواقف و المخاطبات". وبحسب شارحه

عفيف الدين التلمساني فانه لم يرتب كتابه " المواقف"، وقد أورد ثلاثة فرضيات تهم مسألة ترتيبه، فالأولى تنسبها إلى ابن النفري، والثانية ترجعها لحفيده (ابن بنته) وأما الثالثة فتعزوها لتلامذته ومريديه.سننتظر حتى سنة1934م كي يأتي المستشرق " آرثر جون أريري" ليكتشف كتاب المواقف والمخاطبات.

إن خطاب النفري - كما يتبدى في المواقف والمخاطبات- يتسم بالغموض والغرابة، وهو بذلك ينماز عن كل الصوفيين بلغته الإشارية القائمة على الاختزال، وبخياله الخصب المجنح الذي جاوز كل حدود المعقول، لدرجة أن يوسف سامي اليوسف أحد ابرز دارسيه، اعتبر أن النص النفري أعظم نص بعد القرآن الكريم، من حيث أسلوبه المتأتي عن" التأمل الحر لا التفكير المنظم والممنهج".(مقدمة للنفري).

لا شك أن غلالة الغموض التي تلف النصوص النفرية، تجد مرتكزها في خلفيات تكوينه الثقافي، فالرجل لم يتأثر كبير تأثر بالثقافة الإسلامية، إذ نادرا ما يحيل أو يقتبس من القرآن الكريم أو الحديث النبوي على عكس باقي المتصوفة، وبالمقابل تحضر العناصر الزرادشتية والمانوية و البوذية بقوة في الأنسقة البانية لفكره، من ذلك مثلا هذه الثنائيات الضدية الناظمة لنصوصه: الله/ السوى، النور/ الظلام، الظاهر/ الباطن، القرب/ البعد، النطق/ الصمت،الجهل/ المعرفة...الخ.

إن جدل التضاد هذا منبثق من جذر بعض الديانات القديمة، التي عرفها العراق كالمانوية والزرادشتية التي ترى أن العالم قائم على الصراع بين الخير والشر، ناهيك عن نزوعها الزهدي وازدرائها للمادة.أما مقام الرؤيا الذي بنى عليه " صوفي نفر" فلسفته التجريدية، فهو مستمد من البوذية وبالتحديد من مقولة الاستنارة، وفي هذا الصدد تقوم الرؤيا لديه على ثابت أساس يتمثل في إنصاته لصوت المطلق كما هو الشأن في المواقف:" **أوقفني في....وقال لي**" تعقبه الرؤية: " **فرأيت**، ولنجتب نصا من نصوصه حيث يطلق العنان لخياله التصويري مزاوجا بين العديد من العناصر المتضادة والمتباينة، التي تنصهر كلية في الرؤيا الصوفية لتترعها بأعمق الدلالات والمعاني، يقول:" **أوقفني** في الرحمانية

فقال: لا يستحق الرضا غيري، فلا ترضى أنت فانك إن رضيت محقتك، **فرأيت** كل شيء ينبت ويطول كما ينبت الزرع، ويشرب الماء كما يشربه، وطال حتى جاوز العرش ، **وقال لي**: إنه يطول أكثر مما طال وإنني لا أحصده، وجاءت الريح فعبرته ولم تخلله، وجاءت السحاب فأمطرت على العود وأنبل الورق فاخضر العود واصفر الورق، **فرأيت** كل متعلق منقطعا وكل معلق متخلفا"(كتاب المواقف والمخاطبات). وعلى نفس النسق تتبدى "المخاطبات" كسلسلة من التنزلات الإلهية التي تضارع "المواقف" في مبناها ومعناها.

ونحب أن نختم بهذه البوارق الصوفية التي تترجم عشق الصوفي للغته واحتفائه بآلية الترميز والإيحاء:

* " وقال لي: سد باب قلبك الذي يدخل منه سواي، لأن قلبك بيتي".
* " يا عبد، من صبر عن سواي أبصر نعمتي، وإلا فلا ".
* " إن عرفتني بمعرفة أنكرتني من حيث عرفتني ".
* " إنما أحادثك لترى ، فإذا رأيت فلا حديث ".
* " كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة ".

ها قد ضاقت العبارة برحيل النفري، الذي ودع الدنيا في أرض الكنانة سنة 378هـ/965م– بحسب التلمساني- فلتجلّله رحمة الله.

الدرة السابعة والعشرون:

أبو سعيد الخرّاز...قمر الصوفية

" كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل"

واحد من عمداء الصوفية وعلم من علماء السنة والجماعة الممثلين للتصوف السني في القرن الثالث الهجري، كانت ولادته ببغداد في مستهل ذلك القرن الثالث للهجرة بحسب ترجيحات المؤرخين. انفتح الخرّاز مبكرا على تجربة الرحيل فزار عدة بلدان إلى أن استقر ببخارى بخراسان، ثم ما عتم أن غادرها ليلتحق بمدينة الفسطاط عاصمة مصر التي أسسها عمر بن العاص، وذلك في أعقاب نقمة أتباع ابن حنبل عليه وعلى المتصوفة عامة على الرغم من أنه كان متصوفا سنيا وراو للحديث، إذ حدث عن إبراهيم بن بشار الخرساني صاحب إبراهيم بن أدهم ومحمد بن منصور الطوسي.

أما أبرز أساتذته فيبقى معروفا الكرخي وذا النون المصري وبشر الحافي والسري السقطي وغيرهم، ويعد بحسب "السلمي" في " الطبقات" «من أئمة القوم وجلة مشايخهم، وقيل أنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء». وقد أثنى العديد من العلماء على الخرّاز فهذا المرتعش يبرز مكانته قائلا: «الخلق كلهم عيال على أبي سعيد الخرّاز إذا تكلم ، هو في شيء من الحقائق». أما إبراهيم بن شيبان فيصف حال أبي سعيد بقوله: «أقام سنين ما فاته الحق أبدا بين الخرزتين»، في حين ينعته ابن الطرطوسي بقوله: «أبو سعيد الخرّاز قمر الصوفية».

من أهم الكتب التي خلّفها أبو سعيد الخرّاز نذكر: "كتاب السر" و"كتاب الضياء" و"كتاب الصدق" و"كتاب الكشف والبيان"، فضلا عن الرسائل التربوية التي استهدف من ورائها نقل مبادئه وأفكاره لتلامذته ومريديه. والملاحظ أن هذه العناوين التي انتخبها لكتبه تمتح من قاموس القيم والمفاهيم الصوفية بامتياز.

إن سمة الاعتدال التي وسمت التجربة الصوفية عند الخرّاز جعلته يوازن بين "الظاهر" وّالباطن" في أفق التوفيق بين "الشريعة" و"الحقيقة"، وها هنا يصبح الصفاء والنوارنية أهم مرتكز يستند إليه في بناء مفهوم التصوف إذ يقول: «الصوفي من صفّى ربه قلبه، فامتلأ قلبه نورا»، أما تراتبية المقامات الصوفية فيحددها بقوله: «أوائل الأمر التوب، ثم ينتقل إلى مقام الخوف، ثم إلى مقام الرجاء، ثم منه إلى مقام الصالحين، ثم إلى مقام المطيعين، ثم منه إلى المحبين ثم ينتقل إلى مقام المقربين». (آدم ميتز: كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

وتأسيسا على ما سبق تصبح المجاهدة وسيلة للصوفي قصد بلوغ هدفه الأسمى المتمثل في الفناء في المحبوب، وهذه المجاهدة لن تتأتى إلا من خلال التجرد من الدنيا واستحباب الموت، بما هو إعلان عن بدء نعيم الوصال. هكذا يغدو الصوفي الصادق، المشوق إلى لقاء حبيبه/ربه، هو ذاك «المتبرم بالدنيا والبقاء فيها، وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل، ومن علامته التوحش من الخلق، ولزوم العزلة والانفراد بالوحدة، ومن شأنه القلق والحنين والحزن والنحيب والكمد والغصة المنكسرة في الصدر بشدة الشغف والهذيان بذكر المحبوب والارتياح إليه، والفكرة الصافية بهيجان الهمة وجولان الروح في الغيوب، لطلب اللقاء والبهت والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل المأمول ونسيان حظه من الدنيا والآخرة، إلا رؤية من هو إليه مشتاق». (كتاب الصدق للخرّاز)

زين الخرّاز سيرته بخلال كريمة تنبئ عن سمو نفس وأصالة محتد، من ذلك على سبيل المثال، حبه للآخرين وإيثارهم على نفسه، وإعلائه من شأن وقيمة التسامح والتصالح، يقول: «صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف، قالوا: لم؟ قال: لأني كنت معهم على نفسي»، كما أنه شدد على أهمية مقام التوكل، وله روايات عديدة في هذا الباب، إذ يحكي بصيغة المتكلم ويقول:

«كنت بالبادية فنالني جوع شديد فغلبتني نفسي أن أسأل الله صبرا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يقول: ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضيع من أتانا ويسألنا الفتى جهدا

وصبرا كأنا لا نراه ولا يرانا، فلما سمعت هذا أخذني الاستقلال من ساعتي، فقمت ومشيت». أما عن فضيلة الكرم فيقول: «ليس من طبع المؤمن قول: لا، وذلك لأنه إذا نظر ما بينه وبين ربه من أحكام الكرم استحى أن يقول: لا».

كان أبو سعيد الخرّاز من أوائل الصوفية الذين اصطنعوا ألفاظا وشطحات لم يستسغها الفقهاء والعامة، وبسبب من ذلك تم طرده من مصر، يقول السلمي في الطبقات «فأنكروا عليه هذه الألفاظ وأخرجوه من مصر، ثم ‘ردّ بعد عزيزا».

وكذلك ‘ردّ عزيزا إلى دار الخلد وهو يردد آخر كلماته متحدثا عن العارفين الواصلين: «فما عرسوا إلا بقرب مليكهم *** ولا عرجوا من مس بؤس ولا شر».

توفي الخرّاز سنة 277 للهجرة، تغمده الله بواسع رحمته.

الدرة الثامنة والعشرون:

أحمد الرفاعي ... أبو العلمين

"الزهدُ أساس الأحوال المُرضية والمقامات السنية"

«كان متمكنا في الدين سهلا على المسلمين، صعبا على الضالين هينا، لينا، بشا، لين العريكة، وكان حسن الخَلق، كريم الخُلق، حلو المكانة، لطيف المعاشرة، لا يمله جليسه، ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة، حمولا للأذى، وفيا إذا عاهد، صبورا على المكاره متواضعا». بهذه الصفات الحميدة والنعوت الحسنة وصف الإمام اليافعي، شيخنا الجليل رائد الطريقة الرفاعية.

هو أحمد بن علي الحسيني الرفاعي سليل الدوحة العلوية، إذ ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان مولده في قرية " حسن " التابعة لمحافظة واسط بالعراق في سنة 512هـ/1118م، نهل من معين الفقه على المذهب الشافعي الأشعري، وعُد من أقطاب التصوف السني ولُقب بأبي العلمين لنبوغه في العلوم النقلية والعقلية.

في سن السابعة من عمره عاش تجربة اليتم، إذ توفي أبوه فكفله خاله منصور البطائحي، فكانت تلك أول خطوة في بناء شخصيته كمتصوف استثنائي نال حظا وافرا من علوم عصره ، فدرس القرآن الكريم ورتله على الشيخ عبد السميع الحربوني في أولى سنين عمره، كما تتلمذ على يد الفقيه الألمعي أبي الفضل علي الواسطي الذي لقنه العلوم الشرعية وطرائق التصوف فأجازه وهو بعد في سن العشرين، وبلغ من شدة إعجابه به واحتفائه أن خلع عليه لقب "أبو العلمين" لإجادته لعلوم الظاهر والباطن. بعدها بثمان سنين سيتولى مشيخة المشايخ ومشيخة الأروقة التابعة لأخواله وذلك بعهدة من خاله وأستاذه الشيخ منصور البطائحي.

ثبت أن قوام الطريقة الرفاعية يتأسس على الالتزام بظاهر الشرع من كتاب وسنة، إضافة إلى الانغمار في تجربة المكابدة والمجاهدة، ناهيك عن قراءة الورد وتحلية اللسان والقلب بكثرة الذكر، وذلك في انقياد تام لتعاليم الشيخ وفق التقاليد المرعية للصوفية. ألم يقل الشيخ الأكبر مولانا محي الدين بن عربي: «من لا شيخ له فإن الشيطان شيخه»؟؟ ومما يفترض كذلك في مريد الطريقة، السير على نهج السلف الصالح وأن لا يقرب البدعة، يقول الإمام أحمد الرفاعي في هذا الشأن: «اتبع ولا تبتدع، فإن اتبعت بلغت النجاة وصرت من أهل السلامة، فإن ابتدعت هلكت»، هذا علاوة على التجرد من الدنيا، وقد قدم الشيخ نفسه، أروع نموذج وأجل مثال بحيث اشتهر بتواضعه وخدمته لنفسه بنفسه، عدا عن خدمة المساكين والأرامل، فكان يجمع لهم الحطب بنفسه ويحمله لهم، ويطعم المجذومين وذوي العلل المزمنة ويغسل لهم ثيابهم، كما كان يعود المرضى ولو اضطره ذلك إلى السفر من قرية إلى أخرى. ولعل هذا ما حذا بمعاصريه من المشايخ إلى الاعتراف بفضله، واعتبار ما وصل إليه من مقامات إنما كان نتيجة خلقه العظيم المنبني على التواضع والشفقة على الخلق وذل النفس، يقول في هذا الصدد: «سلكت كل الطرق الموصلة فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الافتقار، والذل، والانكسار فقيل له: يا سيدي فكيف يكون؟ قال: تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي سنة سيدك رسول الله»، ويقول أيضا: «إذا رأيتُ يتيما يبكي يتقلقلُ كل عضو مني».

شكل التعليم لبنة أساسية في الصرح التربوي والعلمي الذي شاده الشيخ الجيل أحمد الرفاعي، فكان أحرص ما يكون على تعليم الناس أمور دينهم من خلال الحلقات العلمية التي كان يعقدها لمريديه، وكذلك اجتهاده في ميدان الوعظ والإرشاد، وقد أسعفه إلمامه الواسع بالعلوم الشرعية في إفادة المتعلمين وتكوين أجيال من العلماء الأكابر، وكثيره هي الروايات التي تحدثت عن الجموع الهائلة التي كانت تحج إلى مجالسه العلمية، مثلما هي كثيرة الروايات التي فصلت القول في كراماته التي تنبئ عن شرف مكانته وعظيم بركاته. ولعل أشهر هذه الإكرامات، تلك التي ساقها الإمام جلال السيوطي وهي المتعلقة بمنقبة

تقبيل الإمام أحمد الرفاعي يد جده النبي محمد صلى اله عليه وسلم وسماع صوته، وذلك أثناء حجه ووقوفه على قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

في سنة578 هـ أسلم الرفاعي الروح لبارئها ودفن في قبة جده لأمّه الشيخ يحيى البخاري في بلدته أم عبيده. رحمه الله وأثابه.

الدرة التاسعة والعشرون:

فاطمة النيسابورية...تصوف بصيغة التأنيث

" الزم الصدق وجاهد نفسك في أفعالك وأقوالك"

ليس بمستغرب أن تلج المرأة عوالم التصوف، وتتخذ منه مجالا لإثبات ذاتها، وتغيير ذلك المنطق الذكوري، الذي ما فتئ، يزري بمكانة المرأة وينقص من قيمتها وإبداعها. وإذا كانت رابعة العدوية علامة فارقة في تاريخ التصوف، فإن فاطمة النيسابورية لا تقل عنها أهمية، فالأولى مثلت الجيل الأول من المتصوفات، والثانية جاءت بعدها بحوالي ربع قرن لتتمركز في طليعة الجيل الثاني من العارفات بالله.

ولدت فاطمة ببلخ – بخراسان- التي كانت تحت ولاية أبيها، ولذلك نشأت في رغد من العيش، لكنها سرعان ما رغبت عن حياة الترف لتنخرط في طريق الصوفية، فكان من الطبيعي أن تنهل من حياض علوم عصرها، وهو ما أهلها فيما بعد لتكون من العالمات المبرزات، فهذا أبو عبد الرحمن السلمي يقول عنها «من العارفات الكبار، لم يكن في زمانها من النساء مثلها». وهذه الشهادة تعضدها شهادة أخرى صادرة عن متصوف كبير كذي النون، فلننصت لهذا الخبر المتواتر: «أخبرنا أحمد بن مقسم إجازة قال: سمعت أبا محمد الحسين بن علي بن خلف قال سمعت بن ملول وكان شيخا كبيرا رأى ذا النون المصري قال: فسألته: من أجلُ من رأيت؟ فقال: ما رأيت أحدا أجل من امرأة رأيتها بمكة يقال لها: فاطمة النيسابورية كانت تتكلم في فهم القرآن في تعجيب منها، فسألت ذا النون عنها فقال لي: هي ولية من أولياء الله عز وجل وهي أستاذتي».

أما أبو يزيد البسطامي فوقف موقف المندهش من الشأو العظيم الذي بلغته فاطمة النيسابورية في المنازل الصوفية، يقول:

«ما رأيت في عمري إلا رجلا وامرأة، فالمرأة كانت فاطمة النيسابورية، ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا وكان الخبر لها عيانا» (طبقات الشعراني).

وفضلا عن التصوف كانت العارفة بالله فاطمة، عليمة بأسرار القرآن الكريم، متمكنة من فك مغالقه واستجلاء معانيه وتفسير مشكله، وكما يقول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»، هكذا زان علم الفقيهة المتصوفة خلق كريم متأسس على مبادئ المراقبة والخشية والورع والتزكية والصلاح. ولعل هذا ما جعلها ترتقي في مراتب التجربة الصوفية لتبلغ الولاية، ومن ثم كرست نفسها كأستاذة للصوفيين الرجال، وفي هذا الصدد ترى المستشرقة " آنا ماري شميل" أن التصوف أفاد المرأة وخدم صورتها في المجتمع... وأقر لها المشيخة والولاية وسمح لها بالمشاركة في اجتماعات الصوفية ومجالس ذكرهم.(عن كتاب الأبعاد الصوفية في الإسلام).

وسيرا في نفس المنحى أكدت سعاد الحكيم في دراسة لها بعنوان "المرأة ولية وأنثى: قراءة في نص ابن عربي" على «أهلية المرأة كجنس للعرفان والقرب الإلهي وبالتالي مشروعية أخذ الرجل عنها وتربيته في مجالسها وتأدبه بنهجها وطريقها، وها هو حسن البصري يقول لصحبه مدللا على شخص السيدة رابعة: هيا بنا إلى المؤدبة [...] وأبو يزيد يقول لشيخ الملامتية: تعلم الفتوة من زوجتك (يعني فاطمة النيسابورية)، فالمرأة هنا بشهادة البسطامي وضعت قدمها في مقام يقصر عنه أبطال الرجال لأن الفتوة اقتحام وقوة ونصرة».

إن ما انتهى إلينا من تراث العارفة بالله فاطمة النيسابورية – بالرغم من قلته- يدل دلالة قاطعة على صفاء روحها وصدق نسكها، وهي التي حجت من المسجد الأقصى إلى مكة سيرا على الأقدام ومن أقوالها الشهيرة ننتخب لكم ما يلي:

- " من لم يكن الله منه على بال فإنه يتخطى في كل ميدان ويتكلم بكل لسان، ومن كان الله منه على بال أخرسه إلا عن الصدق وألزمه الحياء والإخلاص".

- " الصادق والمتقي اليوم في بحر يضطرب عليه أمواجه ويدعو ربه دعاء الغريق يسأل ربه الخلاص والنجاة ".
- قالت تعظ ذا النون وقد اجتمعا في بيت المقدس:" إلزم الصدق وجاهد نفسك في أفعالك وأقوالك لأن الله تعالى قال:**"فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ".صدق الله العظيم.

أبت الولية فاطمة إلا أن يكون عروجها نحو الملأ الأعلى على أجنحة التعبد، فأسلمت الروح إلى بارئها وهي في طريقها لأداء مناسك العمرة، كان ذلك سنة 223هـ. رحمها الله رحمة واسعة.

الدرة الثلاثون:

بشر الحافي...رأس الورع

"وهل عزّ أعزّ من القناعة؟"

«وكان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد، وتفرد بوفور العقل، وأنواع الفضل وحسن الطريقة، واستقامة المذهب وعزوف النفس وإسقاط الفضول».تلك هي شهادة الخطيب البغدادي صاحب (تاريخ بغداد) في حق بشر الحافي، فمن يكون بشر هذا؟ هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي أبو نصر المشهور ب"الحافي". واحد من قممم التصوف في القرن الثالث الهجري، أصله من مرو، أما ولادته فكانت ببغداد سنة 179هـ، وبها عاش وصحب الفضيل بن عياض بحسب ما جاء في طبقات الصوفية للسلمي.

لا شك أن كل من يتصدى بالدرس لحياة بشر الحافي، لابد وأن يتبادر إلى ذهنه سؤالان اثنان: لماذا لقب بشر بالحافي؟ وكيف كان تحوله إلى طريق التصوف؟؟

يرى البعض أن سر تلقيب بشر بالحافي يرجع إلى كونه قصد في إحدى المرات حذاء (إسكافيا) فطلب منه شراكا لنعله، فقال: ما أكثر كلفتكم يا فقراء على الناس؟! فطرح النعل من يده وخلع الأخرى من رجله، وحلف أن لا يلبس نعلا أبدا. (البداية والنهاية لابن كثير).أما الرواية الثانية وهي مرتبطة بمسألة توبته وسلوكه طريق التصوف، إذ يذهب بعض المؤرخين إلى أن بشرا كان في بداية حياته متهتكا وميالا للهو، وفي أحد الأيام أحيى كعادته حفلا للغناء في بيته، فمر بجانب منزله رجل صالح فسأل جارية لبشر: «صاحب هذه الدار حر أم عبد؟» فأجابته: "بل حر" فردّ عليها بقوله: «صدقت، لو كان عبدا لخاف من سيده».ولما أخبرت الجارية سيدها بذلك، خرج من داره حافيا ليدرك الرجل، ولما

تحدث معه اجتاحته انتفاضة روحية، فكان أن طلّق حياة اللهو والهزل والتزم طريق العبادة والعلم.

ولا نعدم وجود رواية أخرى لسبب توبته تتلخص في كونه وجد ورقة فيها اسم الله تعالى وقد وطئتها الأقدام، فالتقطها واشترى طيبا فطيب به الورقة ووضعها في شق حائط، فرأى في النوم كأن قائلا يقول: «يا بشر، طيبت اسم الله ليطيبن الله اسمك في الدنيا والآخرة» فلما تنبه من نومه تاب.

وبالرجوع إلى تكوين بشر الحافي، نجد أنه برز في علم الحديث، إذ تتلمذ على يد إبراهيم بن سعد وحماد بن زيد وابن المبارك وغيرهم، كما حدث عنه إبراهيم بن هانئ النيسابوري والسري السقطي وغيرهما. وفي هذا الصدد، يقول عنه الدارقطني: «زاهد جبل ثقة، ليس يروي إلا حديثا صحيحا».

يعد بشر الحافي واحدا من الصوفيين الذين اشتهروا بالورع، كيف لا وقد تربى في أسرة تنضح بالتقوى والزهد، إذا كانت أخواته الثلاثة ناسكات زاهدات بامتياز. ومما يدل على ورعه ، أنه كان يقدس العمل والكد أيما تقديس، وهو الذي اشتغل في المغازل وعاش منها حتى وفاته، عدا عن كونه لم يقبل من أحد شيئا عطية، أو هدية سوى رجل من أصحابه. ومن وصاياه لابن أخته عمر :" يا بني إلزم العمل فإن أثره في الكفين أحسن من أثر السجدة بين العينين". (مناقب بشر الحافي لابن الجوزي).

لسنا نشك في أن إقدام بشر على خلع نعليه وإصراره على التحفي يدخل في باب الورع والمبالغة في إيثار الزهد وترك التنعم وإذلال النفس، وهاهنا نجده يصرح « من أحب الدنيا فليتهيأ للذل»، ومن أشهر وصاياه لمريديه: « أخمل ذكرك وأطب مطعمك». هكذا حمل بشر نفسه على العزوف عن ملذات الدنيا، يقول: «إني لأشتهي شواء من أربعين سنة ما صفا لي درهمه»، كما أن خوفه من أن يضيع حق المرأة مصداقا لقوله عز وجل: ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ [البقرة: 228] جعله يعزف عن الزواج.

إجمالا يمكن القول إن بشرا بلغ مبلغا عظيما من التقوى والورع والزهد في الدنيا، وهذا ما خلد اسمه في تاريخ التصوف، يقول إبراهيم الحربي:" ما أخرجت بغداد أتم عقلا منه ولا أحفظ للسانه منه، ما عرف له غيبة مسلم، وكان في كل شعرة منه عقل لو ‘قسّم عقله على أهل بغداد لصاروا عقلاء، وما نقص من عقله شيء"، أما الإمام أحمد فقال في نعيه « ما ترك بعده مثله ».

توفي بشر الحافي – بحسب ابن خلكان- في سنة 227 هـ وهو في سن الخامسة والسبعين. رحمه الله وأثابه.

عود على بدء:

هيأت لنا هذه الرحلة الرمزية في عوالم الصوفية والتصوف الخروج بخلاصة مفادها أن المتصوفة عاشوا الاغتراب وعايشوه بامتلاء، بدءا من مراهنتهم على الغربة والرحيل واعتبارهما شرطا من الشرائط التي تسلم إلى الطريق الروحي الذي ارتضوه لأنفسهم، وهو الطريق الذي راضوه بالتجرد عن متاع الدنيا وزخرفها، من خلال التزامهم الزهد والورع والتخلق بالخلق الكريم، وقد وقفنا على شدة وطأة الواقع السوسيوثقافي الذي احتضن هؤلاء الصوفيين، مما عمق من تجربة الهامش الاجتماعي لديهم، وجعلتهم يكتوون بنار هذا الواقع الذي لم يقدّر أفكارهم ولم يستسغ منهجهم في الحياة، مما جعلهم يوثرون الانسحاب من هذا الواقع واللوذ بالخلوة والانعزال عن الناس أو الارتحال إلى الأماكن المقدسة باحثين عن مهابط الواردات والتنزلات الالهية.

ومما لا مراء فيه أن المتصوفة أسسوا لتجربة عشقية فريدة تنشد الاتصال بالذات الإلهية، كما استطاعوا من خلال أبدعاتهم نحت لغة جديدة استثنائية مترعة بالرموز والإيحاءات المنفتحة، مما يؤكد افتتانهم باللغة والكتابة عموما، ولعل سرّ هذا الافتتان والعشق النازف لهما يكمن في كونهما جزءا لا يتجزأ من تجربتهم ومن وجودهم.

عموما، يمكن القول إن المتصوفة نجحوا في إضافة لبنة جديدة لصرح الثقافة العربية الإسلامية، من خلال تجاربهم الفريدة في القول والحياة، والتي استطاعت أن تفتح أفقا جديدا لإدراك الوجود إدراكا جماليا يكشف عن لانهائية المعنى. ألم يقل الشيخ الأكبر:" الطريق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين"؟. وفضلا عن ذلك أسبغ المتصوفة، من خلال قيمهم المعرفية والأخلاقية والتربوية والجمالية بعدا كونيا وإنسانيا على تجاربهم تلك، تتسق مع جوهر الشريعة الإسلامية وثوابت الدين الإسلامي، وكذا مع المبادئ الكونية التي تشكل المقاصد البعيدة للأديان والفلسفات الكبرى ذات النزوع الإنساني.

ولعمري إن هذا الغنى الروحي والروحاني الذي تهبه مشكاة التصوف، بإمكان إنسان هذا العصر أن يعتمده كأرضية وقاعدة لتأسيس بنيات السلم والحوار والتعايش والتآخي والتسامح، بين المكونات الداخلية للثقافة الإسلامية من جهة، وبينها وبين الثقافات الأجنبية من جهة أخرى.

بسم الله الرحمن الرحيم:" **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**".(سورة المائدة:آية48).

والله من وراء القصد.